الأخبار
al-akhbar

السبت 22 شباط 2025
العدد 5433 السنة التاسعة عشرة
Samedi 22 Février 2025 nº 5433 19ème année

www.al-akhbar.com

24 صفحة
100000 ليرة



يا سيدي
يا أيها الجميلُ
والقتيلُ
والغريبُ
والمؤجّل القريبُ
والذي يبدّل اسمه
كما تبدّل البحار ماءها
والسماء طيرها
والبلاد ساكنيها
يا أيها القاسم الذي
قسمتَ بين الحياة والموت
قسمة لطالبيها
يقام عرسكَ العجيبُ
في القرى المبعثرة
وفوق ساحةٍ
مضاءةٍ بأعين الصغارِ في القبور
تظل أنت واقفًا
لتحرس المكان
كشبحٍ
على تخوم صاحب الزمان

* محمد علي شمس الدين



نجمة صبحنا القريب

أن يزعل منك السيّد

إبراهيم الأمين

أرسمه على شكل واحد منا. يعيش مثلنا. له طقوسه وله أوقاته الخاصة. وكل ما يميّزه ليس سوى التعب والصبر. كان محجوباً عن الناس. لكن يومياته ليست غريبة عن يومياتنا. في طريقه إلى مكتب أو مقر أو اجتماع، كان يسترق النظر من نافذة السيارة. في إحدى المرات، خالف التعليمات، فطلب من المرافقين تخفيف السرعة وفتح نافذته ولو قليلاً. رأى أحد المارة من الأصدقاء القدامى. كانت برهة واحدة، ثار الناس في الشارع بعدما لمحوا السيّد يلوّح لأحدهم، فيما تشقّ السيارة طريقها في الأزقة. ضحك كثيراً لأنه فاز بلحظة لن تتكرر. وضحك أكثر عندما شاهد عبوس من معه، وكيف تمكّن التوتر منهم. «عقابه» على ما فعل كان في أن يستقلّ في المرة المقبلة سيارة يلفّها السواد، لا يراه أحد ولا يرى أحداً. والعتمة الكاملة ساعدته مراراً على أن يغفو قليلاً قبل الوصول إلى مقصده. ففي أغلب الأحيان، كان عليه الانتظار. شوارع تعجّ بالسيارات، وناس يقفزون بينها بعدما لفظتهم أرصفة شغلها فاسدون. يراقب بصمت، ويسجّل في ذاكرته الملاحظات. وما يفرحه، بخلاف كثيرين، أنه لم يكن عنده من يفتح له الطريق، لا شبان يطلّون من النوافذ صارخين وشاهرين أسلحتهم، ولا أبواق تعلو معلنة مرور الزعيم. كان عليه أن ينتظر وسط الزحام حتى تنزل السيارة في مرْأب، حيث يضطر إلى الانتظار قليلاً قبل أن يركب سيارة أخرى تأخذه في رحلة ثانية تنتهي في مرْأب آخر، لينتظر مرة جديدة، حيث يفترض ألا يراه أحد يُسرع نحو مصعد يقلّه إلى طابق مرتفع فوق الأرض، وكلما كان مرتفعاً أكثر، كان الخيار أنسب.

الرجل الذي يشبهنا في كل الأشياء، كانت لديه مشكلة خاصة اسمها الطقس. الشتاء والربيع والصيف والخريف، كلها فصول تجعله في حالة يقظة دائمة. عندما خلقه الله، زرع فيه حساسية في القصبة الهوائية. ولمن لا يعرفه عن حق، فهو مؤمن بقدر الله إلى أكثر مما يتخيّل أحد. ولأنه كذلك، كان يعتقد بأن الله يختبره لأن الحساسية لا تثقل حركته ولا تلزمه الفراش، ومقدور عليها. لكن المشكلة، أنها تنال من صوته... وهو يعرف أن صوته هو صلة الوصل الفعلية بينه وبين الناس!

كان رجلاً يشبهنا في كثير من تفاصيله اليومية. لكنّ فيه سراً يصعب تفكيك شيفرته، وقد يكون على أهل العرفان محاولة معرفة البذرة التي وضعها الله فيه، ليكون على ما هو عليه، حياً وشهيداً.

لكنني أشعر بضيق شديد. أنا واحد من كثيرين ممن أتيح لهم التفاعل مع الرجل عن قرب، وعلى مدى عقود. لم أعرف منه إلا الود.. لكن ما أعرفه، وما بقي يتعبني طوال الوقت، أنني أزعجته مرات كثيرة، ما يسمح لي أن أكتب: أن يزعل منك السيد!

عام 1992، بعد انتخابه أميناً عاماً للحزب، كنت قد انتقلت إلى العمل في جريدة «السفير». لم يكن صعباً إقناعه بإجراء مقابلة مع الجريدة التي كان قارئاً يومياً لها، ويحفظ بعض ما كتب صاحبها الراحل طلال سلمان. لكنه قال لي: «اسمع، ليست لديّ تجربة في المقابلات الصحافية. أنا أتحدث على طبيعتي، وما أريده هو أن تحذف ما يمكن فهمه بطريقة خاطئة، لأنني لا أريد السجال مع أحد. وكل ما أرغب به هو إغضاب العدو فقط». مرّت الأمور على خير. بعد فترة، طلبنا مقابلة ثانية، وكان قد مرّ وقت على توليه مهامه. في اللقاء الذي يسبق الحوار ويليه حوار عام، أظهر السيد تكيّفه مع منصبه، وكان يحسن إدارة المشهد لجهة القول والتعبير، وهو ما لفت الحاضرين. فقلت للأستاذ طلال إنها قد تكون مفيدة الإشارة إلى ما لفتك من تطور في عرض أفكاره وطريقة حديثه. لكن صياغة الصورة في مقدّمة المقابلة بدت نافرة بعض الشيء. يومها، كلّف أحد الأصدقاء بالسؤال عن سبب الإشارة إلى هذا الأمر. وبقي الأمر على حاله إلى أن اجتمعنا مرة مع صحافي أجنبي، فبادرني قبل الدخول إلى الغرفة بالقول: هل تنوي تقييمي بعد هذه المقابلة أيضاً؟

لم أنتبه إلى الأمر إلا بعدما فاتحت أحد مساعديه الخلّص، فقال لي إن السيد لا يهتم لمن ينال منه سياسياً أو يقارعه في مواقفه، لكنه يرفض أن يقول رأيه في كثير من الأمور، كونه لا يريد أن يظهر كمن أصاب الآخرين بضرر. وهو يتوقع من المحبين الأمر نفسه.

مرت سنوات حتى موعد مفاوضات نيسان 1996. كان نايف كريّم مسؤولاً عن الإعلام، وكان السيد انتقل إلى دمشق لإدارة المفاوضات من هناك. عندما تمّ الاتفاق، نشرت تفاصيله قبل الإعلان عنه رسمياً. مرت أيام قبل أن تصلني رسالة من الشهيد مصطفى بدر الدين، الذي كان المسؤول العسكري في المقاومة، وكعادته بوضوح وبطريقة لا مراضاة فيها، قال: «أغضبت السيد يا سيد. ها أنت مرة جديدة تنهار أمام السبق الصحافي».

بعدها، سعيت للقاء سريع معه من أجل «تصفية القلوب». تأخّر الاجتماع، وعندما التقينا، قال لي: «ما رأيك أن نعقد اتفاقاً؟ نتفق على ما يمكن نشره، وما لا يمكن نشره، فهذا يريحني، ويجعلني أكثر صراحة في الحديث». كانت تلك طريقته في ترتيب الأمر، لكنه لن يترك مجالاً لأن تشعر بأنه كلّف أحداً بالتعبير عن غضبه.

لم تكن باليد حيلة. جاءت عملية أنصارية الشهيرة، وكان هناك غموض مقصود حول ما حصل. ضجّت البلاد بأخبار وفبركات حول حقيقة ما حصل. حتى الراحل طلال سلمان، كان حذراً جداً في نشر رواية «فخ العباس» التي عرضت لما حصل، ولم ترد في الرواية تفاصيل لا عن الهدف، ولا عن طريقة معرفة المقاومة بالخطة الإسرائيلية. لكنّ النص كان حاسماً في أن المقاومة كانت في انتظار جنود العدو. في اليوم التالي، تناقل أهل المقاومة ما نُشر بسرور كبير. لكن، كان في الأمانة العامة من يرفع السماعة سائلاً: «عزيزنا، هل يمكن لصاحبنا أن يسألك: من أخبرك أنه كان ليلة الإنزال على تواصل مع مجموعات المقاومة لحظة بلحظة»!

لم يكن ممكناً أن تجيب أحداً عن مصدر من هذا النوع. ورغم أن المقاومة فتحت تحقيقاً لمعرفة من سرّب الخبر، إلا أن السيد نفسه نام على «زعله»، إلى أن التقينا بعد استشهاد هادي، فقال لي: «تعرف، الإخوان يرتاحون لك، لكنهم صاروا يتجنبون اللقاءات المفتوحة معك، فهم يعتقدون بأنه لا مجال لإقناعك بأن تجعل الصحافي بداخلك ينام قليلاً؟».

جاء حدث كبير نهاية تسعينيات القرن الماضي، عندما تسلّم الشهيد عماد مغنية المسؤولية الرسمية للعمل الجهادي في حزب الله. و«الحاج»، كما يُطلق عليه، كان شريكاً كاملاً لـ«السيد». في الحزب، لم يكن الشهيد مغنية معروفاً للعموم، لكن الجميع كان يعرف أن في الحزب شخصاً يلف السيد حسن بطوق خاص من الطمأنينة. بعد التحرير في عام 2000، انتقل السيد إلى مرحلة جديدة في عهده القيادي. أخذت الأمور بعداً مختلفاً في العلاقة معه. زوار من ألوان عقائدية وسياسية وجنسيات مختلفة، لكنهم لا يظهرون في الصور العلنية، واجتماعات تمتد لساعات تلامس الفجر مع ضيوف يرغبون بأن يفهموا معنى أن إسرائيل قابلة للزوال، لكنّ الكلام عنهم محظور في الإعلام. وكان عليّ اختبار الصمت القاسي الذي كاد أن يفتك بالصحافي في داخلي. وهو أمر كان في المقاومة من يرتاح له، لكنني، مرة جديدة، أجد نفسي في مواجهة السيد نفسه.

بعد عملية الأسر الشهيرة في مزارع شبعا خريف عام 2000، واعتقال الضابط الإسرائيلي الحنان تننباوم، قصدت السيد حاملاً ورقة كتبت عليها تصوراً لتوثيق ما جرى، وما سيجري لاحقاً من أحداث متصلة بالملف. قال لي إنه موافق على السير بالخطة. لكنه يريد مشاورة «الحاج» في الموضوع. يومها، أخفيت عنه أنني أرسلت إلى «الحاج» رغبتي بالأمر، وقلت إنني سأطلب الأمر رسمياً من السيد. قضى الاتفاق يومها بأن أجمع كل التفاصيل المتعلقة بعملية الأسر، ومن مصادرها كافة، ويوثّق شباب المقاومة ما أحتاج إليه من معطيات ومواد تخص الأسرى الأربعة، شرط أن يبقى الأمر سرياً حتى حصول عملية التبادل. لكنّ السيد الذي ترك التفاصيل إلى المعنيين في الجسم الجهادي، كان قد احتاط فطلب منهم إبلاغي شرطاً إضافياً: ستبقى كل المواد لدينا حتى حصول التبادل، وفي حال نشرت أنت معلومات تخلّ بالاتفاق، نكون في حلّ منه. طبعاً، لم يكن أمامي من خيار سوى الالتزام بالاتفاق. وعندما حصل التبادل، حصلت أمور كثيرة تخص المشروع، بينها لقاء مع تننباوم قبل إطلاق سراحه. وفي وقت لاحق، قال لي السيد: «هذه المرة، عرفنا نحن كيف نقيّد الصحافي الساكن داخلك».

لا أعرف لماذا شعرت بالاستفزاز، علماً أن كل من عرف السيد يعلم أنه ليس في موقع من يريد تأديب أحد. لكنني خفت هذه المرة على الصحافي بداخلي. وعندما تتالت الأحداث، لم يكن بوسعي مغالبة نفسي.

ثمة أمور كثيرة حصلت خلال 20 عاماً بعد تبادل الأسرى. بعضها سيُكتب يوماً ما، وفيها أيضاً من الصراع القوي داخلي، خصوصاً ما يتعلق بالعلاقة مع الشهيد عماد مغنية الذي كان يحب أن يقول: «إبراهيم لديه عادة، وهو يريد كل فترة تذكيرنا بأنه ليس عضواً في الحزب»، وكان يقول: «اختلف معنا جميعاً، لكن كيف لك أن تتحمل زعل السيد؟».

> كان رجلاً يشبهنا في كثير من تفاصيله اليومية لكنّ فيه سراً يصعب تفكيك شيفرته وقد يكون على أهل العرفان محاولة معرفة البذرة التي وضعها الله فيه

تغيّرت الأمور كثيراً مع الوقت. وأخذت العلاقة مع السيد شكلاً مختلفاً أيضاً. لكن «العادة» تحركت من جديد. وكانت الحادثة الأولى الأكثر صخباً، عندما وقّعنا في «الأخبار» اتفاقاً مع منظمة «ويكيليكس» لنشر الوثائق الخاصة بوزارة الخارجية الأميركية. يومها حاول الشهيد مصطفى بدر الدين الحصول على نسخة من الوثائق، لكنني اعتذرت منه فحاول عبر طرقه الخاصة الحصول على ما يريد. أما السيد الذي حدّثته عن الملف، وقلت له إن لحرب تموز حصة في هذا العمل، وكيف أن جوليان أسانج ينظر إليه بطريقة خاصة، فقد سألني عن أبرز ما يوجد من مواد. وعندما وصل الملف إلى الوثائق التي تخص الرئيس نبيه بري وفريقه السياسي، جاءني من يتمنى عليّ عدم نشرها. لم يكن الأمر ممكناً، فلا معنى لتمييز فريق عن فريق، بمعزل عن الخداع الكبير الذي تبيّن أن الأميركيين يقومون به في معرض تقييمهم للمقابلات التي يجريها فريق السفارة مع السياسيين، ليس في لبنان فقط، بل في كل العالم. وعندما استنفر الرئيس بري محمّلاً الحزب المسؤولية، منطلقاً من «إبراهيم عند السيد»، خرج السيد حسن للمرة الأولى، ليقول في خطاب علني، إن لا علاقة لحزب الله بجريدة «الأخبار»، مطلقاً موقفاً تسبب بكثير من القلق لعاملين في المؤسسة، ولآخرين من الأصدقاء. فهو لم يكن يقبل أن يُستفز في أمر يهدد علاقته بالرئيس بري أو العلاقة بين حزب الله وحركة أمل. يومها، قال بلغة واضحة: «مستعد لتحمل كل النقد، ومستعد لتجاهل كل ما يصلني من مطالبات لبنانية وعربية وإسلامية حول ما تنشره «الأخبار»، وأنا لست مسؤولاً عن ما تقوم به. ولكنني لا أتحمل، إن كنت تقصد أو لا تقصد، أن تتسبب بمشكلة من هذا النوع، ومع هذا الحليف بالذات».

مرّ وقت طويل نسبياً قبل أن تُرتب العلاقة من جديد، لكن فكرة «أن يزعل منك السيد» تظل حاضرة طوال الوقت. لم تكن ثقتي بنوع العلاقة بيننا قد اهتزت على الإطلاق، ولم يكن هو في وارد وضع شروط على علاقتنا، كما لم أكن أنا في وارد التخلي عن هوامشي.

تكرّر الأمر مع بداية الأزمة السورية، لكنه أخذ شكلاً مختلفاً، ليس لأن السيد قام بشيء مختلف، بل لكون الحدث نفسه سيطر على كل العلاقة بين الجريدة والحزب والمحور عموماً، لكن الدفاع عن الهامش ليس معركة قاسية مع شخص مثل السيد حسن، لأن ما لا يعرفه الناس عن الرجل، أنه الأكثر ديمقراطية في كل حزب الله، وأنه الأكثر إدراكاً لأهمية المعرفة والإعلام في كل محور المقاومة، وأنه الأكثر رغبة في الحوار حول كل ما يوصف بأنه قضية شائكة، راهنة أو تتصل بتاريخ المقاومة أو تاريخ الحركات الإسلامية...

بعدها حصلت أمور يمكن تصنيفها في هذه الخانة، لكن القصة لامست الاعتبار الشخصي، عندما نجح الأميركيون في انتزاع موافقة رسمية لبنانية على إطلاق سراح العميل عامر الفاخوري من سجن المحكمة العسكرية. يومها، لم أتمالك نفسي وأنا أحمّل المقاومة المسؤولية عن ترك الأمر يحصل. لم أقبل فكرة التبرير بأن في الدولة اللبنانية من هو خاضع للأميركيين، وكنت أعتقد بأن على السيد نفسه أن يمنع الأمر بأي ثمن.

في ذلك اليوم الذي كتبت فيه مقطعاً أحمّل فيه المقاومة المسؤولية، وأشير بالاسم إلى السيد حسن، جاءني صديق يلومني على ما فعلت. دافعت عن نفسي أمامه، لكنه قال لي: أنت العليم بحزب الله وليس أنا، وتقديري، أنك تتسبب بإساءة إلى الرجل!

ثلاثة أيام فقط، قبل أن تصلني رسالة مكتوبة من السيد، يصارحني فيها بأنني تسببت بإساءة إلى المقاومة وليس إليه، وأنه لم يكن يتوقع أن يصدر عني، أنا تحديداً، هذا الكلام. سألت عن إمكانية محادثته بالأمر، فبدا لي أن الوضع ليس كما أظن، فحمّلت الرسول نصاً، دافعت فيه عن موقفي. لكنّ السيد الذي سمع الكثير من التعليقات، وجد نفسه مضطراً لأن يخرج إلى العلن في خطاب يعبّر فيه عن غضبه من كل هذه التعليقات. كان السيد يتحدث عن أمور كثيرة، لكنني تصرّفت على أنه يخاطبني أنا وحدي، خصوصاً أنه قال في الخطاب بعض ما قاله في رسالته إليّ. فقررت من جانبي، أن أمارس الاحتجاج، بأن كتبت له مجدداً رسالة قرأها الصديق المشترك فعلّق: رسالتك قاسية، ولكنني سأنقلها كما هي!

لم أنتظر يومها تعليقاً، لكنّ السيد، بادر إلى إبلاغ القيادات المعنية، بأن هناك «زعلاً بيني وبين إبراهيم، ولا دخل لحزب الله في الأمر، وممنوع أن يتصرف أي مسؤول في الحزب مع إبراهيم أو مع «الأخبار» بطريقة مختلفة».

كانت تلك الحادثة هي الأقسى في تاريخ العلاقة. وحده انفجار مرفأ بيروت أخافني كحادث يمكن أن يقود البلاد إلى حيث يريد العدو. كانت رسالة قصيرة جداً تلك التي أرسلتها إلى السيد على عجل. ولم تمر ساعات، حتى طويت الصفحة. لكنني، كنت أحاول أن أفتح معه الحديث من أجل تصفية الأمر ولو لمرة أخيرة ونهائية. وفي يوم، كنا اتفقنا على لقاء، لكنّ رسوله زارني قائلاً: الرجل يهديك السلام، ويقول لك: سلامتها ناديا (ابنتي الصغيرة)، بعد أن تستعيد عافيتها نلتقي...

القصة أن ناديا أصيبت بفيروس كورونا، والسيد كان معزولاً بصورة تامة، وبعد مرور أشهر، عدنا والتقينا، وتحدّثنا عن أمور كثيرة ولم يتطرق إلى الأمر أبداً. فقلت له: تعرف يا سيد، لم أكن أعتقد بأنه يصعب عليّ أن أفهم معنى أن تكون زعلاناً مني. كان مِن حولي من يعرف بالأمر، وكنت عندما أعود إلى المنزل، أجد من ينتظرني متبرّماً: مبسوط، إنو السيد بعدو زعلان؟

هي مسألة شخصية جداً. لا أعرف لماذا أكتب، ولن أكتب، لكنني بعد استشهاد السيد، فهمت للمرة الأولى معنى «أن يزعل منك السيد؟».



نجمة صبحنا القريب

ظاهِرة حسن نصرالله القياديّة

أسعد أبو خليل

مرّت على القضيّة الفلسطينيّة شخصيّات كثيرة عبْر غيرِ قرْن من الزمن. في السنوات الأُولى كانت النُّخب من العائلات النافذة تقود التحرّك. في الثلاثينيّات، برز حزب الاستقلال الذي ضمّ قادة المعرفة الذين ثاروا ضدّ قيادات العائلات. لكنْ في كلّ تلك السنوات وكلّ تلك العقود، لم يُزعج قائدُ إسرائيل أكثر ممّا أزعجها حسن نصرالله. عبد الناصر شكّل هاجساً كبيراً لإسرائيل، والحركة الصهيونيّة خصّصت ميزانية ومؤامرات وحروباً متعدّدة لإسقاطه. لكنّ عبد الناصر لم يكن مستعِدّاً بعد، عند وفاته، للمعركة التي أرادها مع إسرائيل. كان يعدّ العدّة لبناء الجيش المصري أوّلاً، مُعانياً من حالة انهيار وفساد وتسيّب في القطاع العسكري.

> لم يُنفق العدوّ على فهم قائد في الصراع ومطاردته كما أفرد في حالة نصرالله. وكان ذلك سارياً في كلّ دول الغرب. كان هناك تعطّش لمعرفة كلّ شيء عنه. وعندما قال دونالد ترامب في العام الماضي إنّه ذكي، ثار الإعلام اللّيبرالي والإسرائيلي واتّهمه بأنه يدافع عن نصرالله

وحدَه نصرالله عمل على مسارَيْن منفصلَيْن لكن متزامنَيْن: واحدٌ من أجل بناء قوّة عسكريّة تدافع عن لبنان وتصدّ عدوان إسرائيل، وأخرى من أجل الإعداد للمعركة الكبرى من أجل تحرير فلسطين. هذا المشروع يفسّر لماذا تفرّغ العدوّ منذ هزيمته في حرب تمّوز لضرْب الحزب في الصميم. وكان مشروع العدوّ إنجازاً، باعتراف نصرالله في آخر إطلالة له. قوّة «الرضوان» كانت هاجساً؛ لأنّه كان مُعَدّاً لها التقدّم نحو الجليل (خصّص العدوّ فرقة خاصّة لمواجهة قوّة الرضوان). وضخامة المشروع تفسّر عُمْق الخيبة التي أصابت الكثيرين بعد هذه الحرب الوحشيّة.

لم ينصرف قائدٌ للصراع مع إسرائيل كما انصرف هو. تخصّص في الشأن الإسرائيلي الذي كان يأخذ منه ساعات في اليوم. أخذ موضوع مواجهة إسرائيل على محمل الجدّ. يكفي أن تقارن هذه الحقيقة: لم يكن لمنظمة التحرير خبيرٌ في اللّغة العبريّة، فكانت تعتمد على مدرّسي مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة كلّما أراد فصيلٌ ما أن يترجمَ وثيقة عبريّة تسرّبت. حزب الله أنشأ مدرسة لتعليم اللّغة العبريّة. لم تخترق أيٌّ من فصائل منظمة التحرير شبكة اتّصالات العدوّ، مثلاً، كما فعل الحزب.

الذي ميّز شخصيّة نصرالله وقيادته: أنّه كان أبعد ما يكون عن الارتجال والعفويّة؛ لأنّه استوعب درْس السنوات الأولى من الصراع: أنّ الإعداد والعمل الدؤوب هما سرّ النجاح ضدّ إسرائيل في كلّ ميادين الصراع. عرفات كان يعتمد على الخبريات والانفعال: عرقلة مسار سرّي للتفاوض غير المباشر مع أميركا كان يمكن أن يؤدي إلى صليات كاتيوشا عشوائيّة من جنوب لبنان. وكان يعتمد على محمود عبّاس لفهم المجتمع الإسرائيلي (رفضت مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة أطروحة دكتوراه محمود عبّاس - التي قدّمها في جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب في موسكو - بسبب ما فيها من مغالطات ومعاداة لليهودية كيهوديّة وإنكار للمحرقة).

لم يُنفق العدوّ على فهم قائد في الصراع ومطاردته كما أفرد في حالة نصرالله. وكان ذلك سارياً في كلّ دول الغرب. كان هناك تعطّش لمعرفة كلّ شيء عنه. وعندما قال دونالد ترامب في العام الماضي إنّه ذكي، ثار الإعلام اللّيبرالي والإسرائيلي واتّهمه بأنه يدافع عن نصرالله. لكنّ الأزمة لُفلِفت بسرعة عندما اتّضح أنّ حظوظ ترامب في النجاح عالية. لم يُرد قادة إسرائيل إغضابه لأيّ سبب؛ ولهَذا هم تغاضَوا عن تعبيرات معادية لليهود منه. الإعلام الغربي كتب الكثير عنه، وكان نصرالله في البدايات صبوراً في جلساته مع المراسلين الغربيّين. مرّة أشارَ لي إلى عَلم لبناني قُربه قائلاً: كي يعرفوا أنّنا حزبٌ لبناني. قلتُ له يوماً: سمعتُ قبل أيّام نائباً في المجلس الأميركي يصيح ويرغي ضدّ حزب الله داعياً إلى ضرب معقله في... الضفة الغربيّة. وكنتَ وأنت تقرأ عنه في إعلام الغرب ذلك، تتساءل عن سبب تمنّع إسرائيل عن اغتياله كما اغتالت قادة كُثراً في تاريخ الصراع.

قبل أكثر من عشرة أعوام، ألقيتُ محاضرة في كليّة الحقوق في جامعة تكساس وتناول الموضوع حزب الله ودَوره في المنطقة. وكان هناك العديد من الأسئلة من الحضور. وتبيّنتُ بين وجوه الحاضرين أمامي، في الصفّ الأوّل، الأدميرال بوبي إنمان الذي كان قد شغَل لسنوات منصب نائب مدير وكالة المخابرات الأميركيّة. كان متقاعداً آنذاك. وكان اسمه قد شاع (قبل تقاعده) لأنّ بيل كلينتون أراد أن يعيّنه مديراً للوكالة قبل أن يثور اللّوبي الإسرائيلي ضدّه احتجاجاً على ما قال إنّه انحياز منه ضدّ إسرائيل (يُسرّب الصهاينة في أجهزة الحكومة ودوائرها أسماء المسؤولين الذين لا يكنّون مودّة نحو إسرائيل، وكان من أبرزهم). سألني أحد الحضور عن احتمال اغتيال نصرالله وعن حالة الحزب في مرحلة ما بعد نصرالله. أجبتُ عن السؤال. وبعد المحاضرة كنتُ أتحدّث مع بعض الحضور، وإذ بالأدميرال إنمان يقترب منّي. عرَّفَ بنفسه وقال لي: هناك السبب الأهم لتمنّع إسرائيل عن اغتيال نصرالله. سألتُه: ما هو هذا السبب؟ قال: لأنّ الحكومة الأميركيّة أفهمت حكومة إسرائيل بصورة قاطعة أنّه لا يمكن لها اغتيال نصرالله، وأنّ أميركا لن تسمح بذلك. فهمتُ من كلامه أنّ تداعيات الاغتيال كبيرة لدرجة أنّ أميركا لم تُرد أن تتعامل معها، فأمرَت إسرائيل بالامتثال لأوامرها، ففعلت صاغرة كما تفعل عندما يأمرها رئيس أميركي - وهذه حالات من النوادر.

لهذا، عندما اغتيل نصرالله أدركتُ أنّ القرار كان أميركيّاً أوّلاً وأخيراً. أميركا هي التي تضع الحدود لأفعال إسرائيل: إذا كان هناك عمل ما ذو مضاعفات إقليميّة كبيرة فإنّ أميركا تفرض على إسرائيل إعلامها بالأمر وأخْذ الإذن. أي إنّ أميركا قرّرت أنّ الوقت بات مناسباً للاغتيال، خصوصاً في إدارة بايدن التي لم تكن تضع حدوداً أو ضوابط لأعمال إرهاب إسرائيل وعدوانها. عندما اغتيل نصرالله، فكّرتُ كثيراً بمسألة اغتيال قاسم سليماني. ولو تحدّثنا بمنطق الحسابات الدقيقة بين الأعداء (دُولاً ومنظمات) يمكن استخلاص ما يلي: من المنظور الأميركي المعادي للمحوَر، لو أنّ إيران ردّت على الاغتيال بقوّة (كما ردّ أحدٌ ما على اغتيال عباس الموسوي في الأرجنتين) لكان ثمنُ العمل بالنسبة إلى العدوّ يضع ضوابط مشتركة على إسرائيل وأميركا. لكنّ هزال ردّ إيران (من المنظور الأميركي، أيضاً، بالرغم من حوادث الارتجاج الدماغي التي هلّل لها كثيراً محوَرُ الممانعة في محاولة بائسة لتصوير الحدث على أنّه متناسب مع اغتيال الرجل الثاني في المحور، بعد نصرالله) دفع بإسرائيل إلى الإقدام أكثر وخرْق كلّ الخطوط الحمر في حربها ضدّ المقاومة. والاغتيالات الإسرائيليّة في داخل سوريا (وهي طاولت الزعيم العسكري الأوّل في المقاومة، عماد مغنيّة)، أو عدم الردّ عليها أو هزال الردّ، لم تؤدِّ إلى دفع إسرائيل للتردّد أو الامتناع عن ارتكاب المزيد. كان واضحاً أنّ المحوَر لم يُرد التصعيد وأن إيران كانت في مرحلَة مهادنة مع الغرب لأسباب تتعلّق بالوضع الاقتصادي الصعب. العقوبات الأميركيّة باتت أقسى وأشمل بكثير من زمن العقوبات الوحشيّة على العراق في زمن صدّام. أميركا وإسرائيل تبتكران طرائق جديدة دائماً لزيادة معاناة الشعوب والإمعان في التجويع لأسباب سياسية أو رمزيّة.

سمعتُ مقدّمة برامج تلفزيونية تقول إنّ نصرالله كان ظاهرة إقليميّة. هو بات أكبر من الإقليم: إسرائيل وأميركا علِمتا أنّه الشخص الأوّل في المحوَر برمّته، بالرغم من صدارة المُرشد دينيّاً. نصرالله كان هو المُخطِّط للمحوَر وصانع القرار في كلّ ما يتعلّق بالصراع مع إسرائيل. حتى سياسات إيران كانت تحتكم له. كنتَ ترى ذلك فقط من خلال صور اجتماع رؤساء إيران وقادتها معه. طبعاً، في مماحكات الصراع اللّبناني وبروباغاندا الخليج الحليف لإسرائيل: كانوا يصوّرونه على أنّه تابع لإيران تماماً مثلما أنّ السنيورة أو جعجع أو شيعة الإعلام السعودي يتّبعون السعوديّة. نتنياهو فهم دَورَه أكثر من خصوم الحزب في لبنان، إذ قال إنّه كان صانع القرار للمحوَر وليس تابعاً لإيران. نصرالله كان يمكن أن يكون قائداً أوحد للعالم العربي لو أنّه كان سُنيّاً، أو في عالم عربي يخلو من الانقسام المذهبي الذي غذّتْه المؤامرة الخليجية-الغربيّة-الإسرائيلية.

الغرب فهم دَورَه وكان هناك حرص على متابعة خُطبه. مع كلّ محبّتي وإعجابي وتأثّري بالراحل العظيم، جورج حبش، فإنّ العدوّ لم يكن على الأرجح يتابع خُطبه. وخُطب عرفات كانت للتفكّه: جبل النار، عالقدس رايحين، بالملايين، اسمع، يا شارون، الخ. قد تكون خُطب نصرالله هي الوحيدة التي كانت تخضع لترجمة فوريّة وبثٍّ مباشر من قِبل إعلام العدوّ. كانت خُطبه تحوي مضموناً مدروساً وتستطيع أن تقارن خُطبه بخُطب قادة المقاومة الفلسطينية أو الحركة الوطنيّة. ظاهرة مختلفة بالكامل.

علِمَ نصرالله، بحسب شهادة أسامة حمدان، أنّه يرتكب مجازفة كبرى في فتْح حرب الإسناد. لم يستطع، بالرغم من حذر إيراني للمرحلة، أن يقف متفرّجاً على حرب وحشيّة على غزَة. هنا، غلّب حسّ التزامه بشعب فلسطين على حساباته الدقيقة في الصراع مع إسرائيل. هل يعني هذا أنّ نصرالله أخطأ الحسابات؟ هذا موضوع لا يمكن الإجابة عنه بعجالة أو بحساب الساعة، بل موضوع تقرّره الأجيال. يُنظر إلى قرار الفيتكونغ بهجوم «تِتْ» في عام 1968 في الحرب الفييتناميّة بنظرة مختلفة عن حساب فشله يومها. هذا صراع طويل، وأيّ نظرة لمفصل في الصراع خارج سياق أمد الصراع يعزل الحدث عمّا سبَقه وما سيلحقه. الأكيد أنّ نصرالله هو اليوم الزعيم العربي الوحيد الذي وهب حياته لأجل فلسطين. عندما ألقى خطبته الأخيرة، وهي خطبة وداعيّة لمن يعود إليها، علِمَ أنّ قراره الاستمرار في مساندة غزّة سيكلّفه حياته.

انتشى الإعلام الصهيوني في الغرب باغتيال نصرالله، لكنّه تعامل مع الموضوع بحذر. أذكر أنّ إسرائيل ودُعاتها احتفلوا بنهاية حزب الله في عام 1992، كما احتفلوا بوأد القضيّة الفلسطينيّة باغتيال عرفات ورفاقه من قَبله. نصرالله، مثلُه مثل أنطون سعادة، كان -بخلاف عبد الناصر- رجل تنظيم قبل أن يكون خطيباً تحريضيّاً فاعلاً. هو مسؤول عن بناء التنظيم وإعداد القادة وخلْق بنية عسكريّة لم يسبق لها وجود في كلّ تنظيمات المقاومة. حتى تنظيم «حماس» في غزّة يدين له بالكثير من الأفكار والأساليب التي أثبتت نجاحها في الحالة اللّبنانيّة.

التحدّي الكبير أمام تلاميذ نصرالله هو القدرة على الاستمرار وإعادة البناء والتطوير بغياب القائد الفذّ. يُثبت تلاميذ نصرالله نجاح مدرسته في الحدّ الذي يستطيعون فيه الاستمرار من دونه. هو لم يكن يؤمن بتنظيم الشخص. هو آمن ودعا إلى تنظيم المؤسّسة الذي يرتبط بالأمّة جمعاء. الخسارة التي لحقت بالحزب كبيرة وكبيرة جداً، لكنّ التحدي الإسرائيلي لا يزال كبيراً، وربّما هو أكبر من قبل، لأنّه استطاع في الفترة الأخيرة أن ينتقم للكثير من هزائمه أمام المقاومة في لبنان. هذا الصراع استمرّ بغياب قائد مِن قبل وهو سيستمرّ. سنرى ما إذا كانت مدرسة نصرالله التنظيميّة قد أنتجَت قادة جُدداً يستطيعون استخلاص الدروس من المرحلة الماضية والتقدّم نحو مرحلة جديدة أكثر قسوة. الصهاينة في حالة انتشاء إقليمي خصوصاً بعد تنصيب إقليمي-غربي لنظام سوري جديد لم ينفكّ يصدر التطمينات لإسرائيل منذ وصوله إلى الحُكم. لكنّ قرناً من الوحشيّة الإسرائيليّة لم ينهِ القضيّة.



الوقت لاستكمال المسير

محمد حسب الرسول *

استعصت الكلمة وضاقت العبارة، حين انعقد عليها الرجاء في الحديث عن زعيم طالما ملأ الدنيا وشغل الناس، وفي وصف حال أمة صنع لها الرجل مكانة في التاريخ.

الحديث عن السيد حسن نصرالله حديث عن الأمجاد والسؤدد والمعالي، مثلما هو حديث عن التاريخ بحقبه السالفة والحاضرة والآتية، وفي الوقت عينه، هو مقاربة بين النظر والعمل في مسيرة رجل عمر الحياة بالمعاني والأعمال.

يقول المفكر الإسلامي حسن الترابي، إن الجهاد هو استفراغ الوسع لتحقيق المراد الإلهي، وهو المعنى ذاته الذي مثّل حياة السيد حسن نصرالله، فقد عرف مجاهداً بذل كلّ جهده، وسخر كل حياته لتحقيق المرادُ الإلهي، وهل من مراد للربّ أكثر من سعي صادق ودؤوب لتحقيق الحرّية والعدل والكرامة الإنسانية؟! وهل من تجل لهذه الثوابت الإنسانية أجلى وأوضح من سعي لاستعادتّها بعدما سلبها المشروع الصهيوني-الغربي في فلسطين ولبنان والمنطقة؟!

لقد عرف نصرالله مراد الله الحق، وبلغ المعرفة بعدما بذل جهده العقلي بحثاً وتنقيباً، وأكمل مسعاه في معرفة ذلك بالعمل المنبعث من نفس بالغة الاستقامة. عمل في كل المساقات، عملاً متعدد الأوجه، ينطلق من جهد تنظمه استراتيجيات وخطط، شملت صناعة الوعي، وتقوّية الإرادة، وحشد وتنظيم الطاقات، وبناء القوة الشاملة بكل عناصرها.

كانت استقامة الرجل حاضرة في كل وقت وحين، جسدتها سيرته وأكدتها وقائعها، فعرف بصدق يصدقه عمل، فجّاءت فصول حياته منارات مضيئة أحسن فيها الفعل والقول. لم تغره الحياة الدنيا بزخرفها وزينتها، ولم تكرهه غريزة الحذَر والتوقي والاحتراس، فقدم نفسه في سبيل ما آمن به، وقدم قبلها ابنه أسوة برفاقه الذين مضوا في ذات الطريق.

كانّ دمثاً لطيفاً، وكان صارماً صلباً حين يقتضي الحال صرامة وصلابة، وحين بلغه نبأ استشهاد نجله، اعتصر حزنه وحبسه، حتى لا يُري عدوه منه ضعفاً، فأبدى قدرة فائقة في التعامل مع ذاك الظرف، أفقدت العدو فرصة أن يراه في لحظة ضعف.

> أشْعَرَ مُسْتَضْعَفِي الأرض أنه نصيرهم، المعبّر عن آهاتهم وتطلعاتهم، وهذا سرّ من أسرار نجاح زعامته التي تجاوزت الحدود والانتماءات والهويات، فصار رمزاً عالمياً يبني ويقود مشروع تحرّر عالمياً على أسس جديدة

كان خطابه مادة للتثقيف ولبناء الوعي، واكتسى خطابه رصانة وسلاسة وقوة، تزيدها ابتسامته جمالاً، ويزيدها رفع إصبعه قوة وصرامة.

أشْعِرَ مستضعِفِي الأرض أنه نصيرهم، المعبّر عن آهاتهم وتطلعاتهم، وهذا سرّ من أسرار نجاح زعامته التي تجاوزت الحدود والانتماءات والهويات، فصار رمزاً عالمياً يبني ويقود مشروع تحرّر عالمياً على أسس جديدة، تواجه طغيان واستبداد المشروع الصيوني-الغربي بأبعاده الإمبريالية الرأسمالية المتوحشة، معتمداً على ثلاثية الحرّية والعدل والكرامة بوصفها ركائز مشروع التحرّر والانعتاق الكوني الذي يؤسس له.

أيقن السيد نصرالله أن وحدة الأمة فريضة لازمة، فجعلها أولى أولوياته، وعلم أنها المنطلّق لوحدة إنسانية تمثّل هدفاً ومطلباً لا غنى عنه في مسار صناعة تاريخ إنسانّي جديد، في وقت يطغى فيه مشروع غربي تجرّد من قيم الإنسانية وبات مهدّداً لها. ولهذا كان السيد الشهيد جسر الوصل والتواصل.

يقارن البعض السيد نصرالله ببعض القادة والزعماء في العصر الحديث، لكنها مقارنة غير منصفة لأسباب عديدة، أولها أنه جمع مزايا من قورن بهم، ولم يجمعوا ما اتصف به، وثانيها أنه انطلق من فكرة ومشروع أكثر عمقاً، ومن كاريزما استثنائية لم تتوفر لغيره حتى اليوم، وثالثها تميّزه بقدرة فائقة في التخطيط والتدبير والتعبير ترجمت على الأرض مشروعات للمدافعة والانتصار والإعمار الحضاري المؤسّس على أسس متينة وسليمة، ورابع الأسباب اعتماده على حركة تغيير اجتماعي وسياسي، بينما كانت السلطة بوظائفها وإمكاناتها هي منطلق الآخرين.

لو تسنى للسيد الشهيد أن يقول شيئاً في ساعة تشييعه، لقال لمشيّعيه الذين يأتونه من كل فجّ عميق، إن الوقت لاستكمال المسير لا للعزاء والرثاء، وإن بين أيديهم من عناصر الدفع والقوة ما ليس عند عدوهم، فعضّوا عليها بالنواجذ ولا تتركوها للنوازل.

* باحث سوداني



نجمة صبحنا القريب

الغياب الذي لا يغيب

منير شفيق *

إن الكتابة عن سيد المقاومة السيد حسن نصرالله في يوم تشييعه، يختلط فيها الذاتي، بالنسبة إلى الكاتب، مع الموضوعي، ولا سيما إذا كان من محبّي السيد حسن، وتعايش معه على مدى عشرات السنين، مع الإعجاب والتقدير والتعلّم.

ولعل واحدة من مزايا السيد حسن، أن غيابه حضور دائم، على المستويين الخاص والعام. وعلى المستوى السياسي والفكري والنظري، واليومي الميداني. فالسيد منذ فارقنا لا يغيب، ولا سيما، على المستوى الفلسطيني والعربي والإسلامي، وأحرار العالم. وهذه حالة مترسّخة بالنسبة، إلى كل من عرفه وعاش زمانه.

فالكتابة عن السيد حسن تعاند نفسها في استخدام اللغة عن غائب حاضر، وتشييع حيّ ناظر. وذلك بالرغم من واقع هذا الغياب الصاعق، الذي لا يصدّق، وهو صدقٌ، يوجب عليك تكذيبه، بالرغم من تصدّع قلبك وروحك ونفسك. ويوجب عليك أن تعترف بأنك تكذب على نفسك... إنه غياب وحضور في آن معاً، ولحظة واحدة.

الإشكال الثاني، أن شخصية السيد حسن ومزاياه، وما ترجمه في حياته الجهادية والعملية، والفكرية، تحتاج إلى أن تُسطّر في مجلّد، وليس في مقالة، تفرض عليك، أن تنتقي القليل من كثير، وتلقي ضوءاً على بُعد، وهنالك أبعاد أخرى، يحرجك ألّا تتناولها، بالقدر نفسه، من حيث الأهمية. ولكن مع ذلك، لا بد من الاختيار والانتقاء، كما تقتضيه المقالة، والعذر والأمل في العشرات الذين كتبوا، وسيكتبون بما يفي حقّ السيد حسن نصرالله علينا، وهو وفاءٌ يظلُّ مقصّراً.

البُعد الذي ستختاره هذه المقالة، بالرغم مما فيه من تقصير، يتناول الخط السياسي الذي قاده السيد حسن خلال مرحلة ما بعد «طوفان الأقصى» في 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، حتى استشهاده الجلل في 27 أيلول/سبتمبر 2024. وأيّ جلل. وأما السبب فهو ما ناله، ذلك الخط السياسي من تخطيء له، مباشر أو غير مباشر، وقام بذلك من قادته أحقاد وعداوات، وأمراض نفسية. وإن كان بعضه صدر من أصدقاء ومحبين، عن حسن نيّة.

> **قاد السيد المقاومة في حرب الاسناد قيادة صحيحة لم يُخِلّ بها غير ما حدث من خارج الحرب ومن خارج كل تقدير**

ومن هنا فالمقالة، ستقدّم شهادة تعتبر أن السيد حسن قاد المقاومة خلال تلك الفترة، قيادة صحيحة، إلى أبعد الحدود. ولم يُخِلَّ بها من خلل، غير ما حدث، من خارج الحرب، ومن خارج كل تقدير، وهو ما كان مخترقاً، ومزروعاً من جانب المخابرات الصهيونية والدولية، قبل السابع من تشرين الأول/أكتوبر 2023. وبقي خافياً في لبنان والعالم، طوال الحرب على المقاومة والشعب في قطاع غزة. ولم يظهر إلا بعد اثني عشرة شهراً، وهي الفترة التي تغطي موضوع تناول الخط السياسي، الذي قاد به المقاومة، سيدها. وذلك من الثامن من تشرين الأول/أكتوبر 2023، حتى السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر 2024.

إذا صح هذا التقدير، بالفصل بين الاختراق الأمني الذي جسّدته الاغتيالات، وتفجير البيجرات، وأجهزة الاتصال، ولا سيما الوصول إلى المخابئ الأساسية، والتحكم بقصفها، خاصة، المتعلقة بالسيد حسن نصرالله والسيد هاشم صفي الدين، وقادة «قوة الرضوان»، من جهة، وما يسمّى «الخدعة في الحرب» أو موضوعة الحرب خدعة. وذلك لأن الاختراق الأمني المذكور، لا علاقة له بما عُرِفَ بالخدعة، أو الخداع في الحروب. فهو مجال قائم بذاته. فمثلاً، الاغتيال بقتل قائد أو رئيس دولة، بتدمير طائرته المدنية، وهي في الجو، لا يدخل في موضوعة الخدعة، ولا حتى بالحرب. بل ثمة إجماع، على أنه عمل إجرامي، مدان بحدّ ذاته. ويُعتبر غدراً وإرهاباً، مخالفاً للقانون الدولي، والأعراف العسكرية.

من هنا فإن التفجيرات والاغتيالات التي حدثت، قبل أن يعلن نتنياهو الحرب على حزب الله، كانت نتاج عمل أمني سابق، قائم بذاته. وكان لها أكبر الأثر، أو كانت العامل الحاسم، في الخسائر التي لحقت بحزب الله، عسكرياً وسياسياً. فحزب الله، لم يدخل الحرب بكامل قوته وقيادته ويُهزم، حتى يُعتبر، قد خسر الحرب. هذه الإشكالية، وهي المتعلقة بالاختراق الأمني، المشار إليه، حاسمة في تقدير الموقف، وتقويم قيادة السيد نصرالله، للمرحلة الممتدة من 8 تشرين الأول/أكتوبر 2023، إلى 27 أيلول/سبتمبر 2024. وذلك لسببين، أولاً كونها غير محسوبة أو مرئية، من جانب قيادة حزب الله، ولا من جانب أي محلل لميزان القوى، لتلك المرحلة. هذا ولا يمكن لأحد أن يدخلها في حساب ميزان القوى، على القيادة العسكرية الصهيونية، أو من شارك من مخابرات، في تلك المكيدة الأمنية الغادرة، الشديدة السريّة.

ولهذا فإن تقويم قيادة السيد حسن نصرالله، في إدارة الصراع خلال تلك المرحلة، يسمح باعتبارها إدارة صحيحة، وناجحة ودقيقة جداً. لأن كل حساباته، من جهة خارجة عن ذلك الخرق الأمني الخطير، الذي قلب معادلة ميزان القوى بين حزب الله والكيان الصهيوني، رأساً على عقب. فعلى سبيل المثال، كانت القوى العسكرية لحزب الله، تقدّر من قِبَل الكيان الصهيوني، بامتلاك ما لا يقل عن مائة وخمسين، أو مائتي ألف صاروخ، بما فيها البالستية وغيرها، فضلاً عن عشرات الآلاف من المقاتلين، ومن قدرات أمنية وقتالية، مثل المُسيّرات والرادارات والأنفاق، الأمر الذي سمح للسيد حسن في تقويمه، أو خطبه، ولحزب الله في تقديراته: أن من غير المتوقع، أن يشهد العدو حرباً، بسبب عدم قدرته على الانتصار فيها، أو بسبب ما يمكن أن يناله، من خسائر في حالة الاشتباك الصاروخي: فهذان السببان كانا يفسّران عدم وقوع الحرب، خلال السنوات الخمس السابقة، مثلاً.

وإنه لأمرٌ سمح أيضاً للسيد حسن أن يعتبر قوّة الجيش الصهيوني، كخيوط العنكبوت. وكان هذا شبيهاً، بتقدير للقائد الصيني ماو تسي تونغ في خمسينيات القرن الماضي، عندما اعتبر أميركا نمراً من ورق. وهي التي تمتلك، مئات القنابل النووية مثلاً. فبعض السذّج في قراءة تصريح السيد حسن حول خيوط العنكبوت، أو تصريح ماو تسي تونغ حول النمر الورقي، اعتبر أنها استهتار بقوّة العدو، فيما المقصود منهما، ليس المعنى الحرفي التبسيطي، وإنما المقصود البُعد الاستراتيجي، والتاريخي. وذلك من دون استهتار بقوّة العدّو العسكرية، والدليل هو الجهد المتواصل والهائل في التسلّح، وحشد الإمكانات العسكرية، وتأجيل المواجهة، إلى أطول مدّة ممكنة، لتحقيق استعدادات عسكرية كبرى.

وهنا أيضاً طرح نقد آخر، من أصدقاء طالبوا بأن يعلن حزب الله، الحرب فوراً في الثامن من تشرين الأول/أكتوبر 2023، إذ لاحت فرصة هزيمة الجيش الصهيوني وتحرير فلسطين. وذلك في الوقت الذي كانت حسابات السيد حسن الدقيقة، لقوّة العدّو، لم تصل بعد إلى إعلان تلك الحرب، والانتصار فيها.

ولهذا كان قرار السيد حسن، صائباً، حين أخذ قرار المساندة، وبحساب دقيق جداً، لقواعد الاشتباك، ما يؤكد أنه لم يكن مستهتراً بقوّة العدّو، عندما تحدّث عن خيوط العنكبوت، بل كان شديد الحذر، في الآن نفسه، بإدارة التصعيد، وفقاً لتطورات الحرب في قطاع غزة، وعلى مستوى المساندة، كما على مستوى توسّعها، ليتدخّل المحور كله.

فمن يدقّق في كيفية إدارة السيد حسن للمساندة (المشاركة) العملية في الحرب، ضمن سقف محدّد، يساعد المقاومة في قطاع غزة، ويشغل العدّو نسبياً، يتأكد من أن قيادة على أعلى مستوى للحرب، عبّرت عنها قيادة السيد حسن، للمرحلة الممتدة من 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، إلى 27 أيلول/سبتمبر 2024.

ومن هنا يمكن القول، لولا الألغام الأمنية، التي كانت مزروعة داخل المواقع الآمنة في حزب الله، والتي شلّتها الاختراقات، والتفجيرات والاغتيالات خلال شهر أيلول/سبتمبر 2024، لكان حزب الله، قد جنى ثمار انتصار عسكري، وفقاً لميزان القوى المُعطى، لا يقلّ أهمية، إن لم يزد، عن الانتصار العسكري الذي حقّقته المقاومة في قطاع غزة، كما تجلى في اتفاق وقف إطلاق النار في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير 2025 في غزة.

أما البُعد الذي يحتاج إلى الكثير من التدقيق والتحقيق والتحليل والنقد، فهو المتعلق بإشكالية الاختراق في مختلف أبعادها. فهذه الإشكالية التي عطّلت، فعل السياسات الصحيحة، وأبطلت موازين القوى المعطاة، والمُشاهَدة والمحسوبة، وتدخلت في الحرب العسكرية، وما هي من الحرب العسكرية، وإنما هي من مجال الأمن والغدر، وما يستتبعه من أساليب الغش وشراء الذمم، واستخدام الأساليب الدنيئة، للوصول إليها. وقد زادت التكنولوجيا تلك، الطين بِلّة، وأكثر.

وبالمناسبة، إن هذا الاختراق بأبعاده المختلفة، وتنفيذه صُمّم خصيصاً للحرب ضدّ حزب الله، وليست له علاقة مباشرة بسياسات حزب الله الخاصة، بوحدة الساحات، أو بفصل الساحتين، وذلك بدليل أسبقيتها، بسنوات وسنوات. وقد كشفت ما كان العدّو الصهيوني، يبيّته لحزب الله، وكيف كان يقدّر خطورة السيد حسن نصرالله، وحزبه عليه.

وبكلمة، إن كل من يقوّم تلك المرحلة، وعلى التحديد، بالنسبة إلى حزب الله وقيادة السيد حسن نصرالله، عليه أن يركّز على إشكالية الاختراق، المتعدّد الأوجه، حيث استطاع العدو، بصورة غادرة، أن يقحمه في الحرب، ربما، بسنوات قبل عملية طوفان الأقصى، وتداعياتها، وصولاً إلى يوم 27 أيلول/سبتمبر 2024، الجارح الساكن في أعماق كل قلب عربي وإسلامي وحرّ، إزاء هذا الاستشهاد العظيم.

* كاتب وسياسي فلسطيني

شهيد الوحدة والثوابت

أحمد الدان *

مع تشييع الأمة لشهيدها السيد حسن نصر الله شهيداً على طريق القدس، يكون هذا التشييع تشييداً لمنارة متعددة الأنوار، وتثبيتاً لرمز من رموز الأمة متعدد الأدوار والدلالات. فيها الجهاد والمقاومة والوحدة، والتربية على العزة. وهناك دلالات السياسة والرؤى الإستراتيجية، والتمسّك بالأصالة في ظل النظر إلى آفاق المستقبل. ودلالات الشباب المتوثّب والشيوخ الحكماء، ودلالات فلسطين قضية الأمة المركزية .... ويمضي الرجال ويبقى النهج والأثر.

التقيت السيد حسن نصر الله أواخر عام 1998 في رحاب دمشق الفيحاء، برفقة الزعيم الثائر الجزائري الرئيس الأسبق أحمد بن بله عليه رحمة الله، خلال فعاليات المؤتمر الشعبي الفلسطيني، الذي عُقد لمواجهة أخطار إلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني، وانخراط السلطة الفلسطينية في مشروع أوسلو والضغطين الإسرائيلي والأميركي من أجل إلغاء ذلك الميثاق المعبر عن تطلّعات الشعب الفلسطيني، واهتمامات الأجيال الثائرة والمقاومة. فكان السيد نصر الله واحداً من أبرز الذين اختاروا وحدة الساحات واحتضان المقاومة الفلسطينية في ذلك المؤتمر، الذي كان تعبيراً عن النضال الفلسطيني الرافض لتصفية القضية الفلسطينية والعامل على تجميع الأمة من أجل وجهتها الإستراتيجية في حماية الحق الفلسطيني وتحرير المسرى وبيت المقدس، وكانت هموم الحاضرين واحدة تعبيراً عن مركزية فلسطين في قضايا الأمة التي عبّر عنها بخطابه القوي وأفكاره العميقة والواقعية.

ثم التقيت السيد نصرالله مرة ثانية برفقة الزعيم المصلح الشيخ محفوظ نحناح رحمة الله عليه في رحاب بيروت المقاومة عام 2001، بمناسبة الإعلان عن مؤسسة القدس الدولية، وانعقاد مجلس أمنائها حيث شرفنا بدعوته الكريمة وبثنا همومه في الحرص على وحدة الساحة اللبنانية وألم السهام المفرّقة من الأعداء والأشقاء، وناجانا طويلاً بذكريات المقاومة وأسرارها في التصدي للوجود الأميركي والصهيوني وتشاركنا رؤى التفريق بين السلطة والدولة، والبوصلة القائدة لنجاحات المستقبل والحرص على التنشئة الثوابتية للأجيال القادرة على تأمين العبور الآمن للأمة عبر المشاركة الفاعلة في كل المجالات المقاوماتية، والاجتماعية والثقافية الفكرية في ظل التقارب والابتعاد عن الإثارات والنعرات السلبية التي يقتات منها الأعداء والخصوم وتحويل هذه الأفكار إلى مشاريع ومؤسسات عاملة في الأمة وتفعل أدوات الوفاق والتكامل بينها .

والتقيته مرة ثالثة برفقة قيادات العمل الإسلامي في الجزائر مهنئين بالانتصارات حريصين على التقارب بين أطياف الأمة مع اقتراب المعارك الفاصلة، التي كان حديثه عنها رحمه الله وكأنه يراها رأي العين وهو يستشرف تحدياتها وساحاتها وآثارها على الأمة، ما يفرض التحضير والإعداد وتوسيع ساحات المقاومة في كل مجال، لأن وحدة الساحات نقطة ارتكاز في انتصارات المستقبل.

لقد كان الشهيد نصر الله رحمة الله عليه رمزاً متعدد الأبعاد:

- رمز للإحياء الجهادي الواعي الرزين المدرك للمعركة الحقيقية، الذي سخّر كل إمكاناته وجهوده في الاتجاه الصحيح، من أجل اختصار الوقت وتمييز الجهاد الحق عن العنف والتطرف اللذين تصنعهما الدوائر الصهيونية والأميركية ضراراً في ساحات الأمة ودعوات التكفير والتفسيق والتمزيق في وسطها.
- رمز لوحدة الله بين مكوناتها، وخبير بالتسويات الضرورية في الوقت المناسب، مع التمسك بالموقف الصحيح عندما يتعلق الأمر بالثوابت والمبادئ متجاوزاً كل حالات التعصب الفقهي عندما تتعارض المصالح المذهبية مع مصالح الأمة ومشروع المقاومة الكبير.
- رمز للتربية الاجتماعية والسلوك الزكي والتنشئة الأخلاقية في المجتمع، ومؤمن بأن الحاضنة الشعبية الصالحة هي عامل الديمومة والقوة للمقاومة، وأن الأخلاق الاجتماعية أساس لمشروع الدولة، والاستقرار والتحرير الذي تستهدفه المقاومة، لأن المقاومة لم تكن عنده حرب وإنما كانت مرحلة تحررية وحالة إنسانية تمنع الأمة من السقوط في الذل والاستبداد والاستعمار .
- رمز للتواضع والاقتراب المستمر من الناس ومشاركتهم همومهم تضحية بأعز ما يملك من أجلهم والزهد في ما في أيديهم رغبة في ما عند الله وتوكلاً عليه مجسداً للأخلاق النبوية في الحرص على الناس ومصالحهم واحتياجاتهم متكفلاً دائماً بمشاركتهم التكاليف الصعبة التي فرضتها حالة الصراع مع العدو الصهيوني
- رمز للتسامح الذي جعل منه ملتقى بين مكونات لبنان على اختلاف أديانها وأفكارها ومذاهبها وعرقياتها وصورة نموذجية للقائد المترفع عن الأحقاد والخلافات والإثنيات حتى أعطى لبنان نموذجاً للأمة القادرة على المقاومة رغم اختلاف مكوناتها والصابرة في طريق الحرية رغم نزف الجراح.
- رمز للوفاء والصدق والمصداقية، لم يكن يطلق الحديث على عواهنه وإنما كانت كلماته مصدراً دقيقاً تتلقاها بالتصديق والموثوقية وكالات أنباء الأعداء قبل الأصدقاء، فإذا وعد أنجز وإذا عاهد لم يخن.
- رمز للوطنية الصادقة والوسطية والاعتدال وتقارب الإسلام والقومية وارتباط السياسة بالأخلاق وانسجام الشريعة مع العصر في فهم مثالي وفقه دقيق للحياة والرؤى الإستراتيجية التي تحذر الأمة من المخاطر والتحديات بما يدركه القادة الميدانيون انسجاماً مع قول الله تعالى «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون».

لقد كان السيد نصر الله حريصاً على كل الأقطار الإسلامية كما كان حريصاً على لبنان، وكم شارك الجزائريين قضاياهم الحساسة حين الأزمات الخطيرة التي مرت بها الجزائر خلال سنوات المأساة الوطنية، وحذر الجزائريين من الكيد الممنهج في مرحلة ما بعد الربيع العربي، وكان حريصاً باستمرار على تطوير العلاقات البينية في إطار القواسم المشتركة بين القوى الحية في أمتنا، والحرص على الاستفادة من درس الجزائر الكبير في صناعة التحرير ومقاومة الفتن وديبلوماسية الإصلاح والمصالحة.

لقد كان الشهيد الكبير حسن نصر الله زعيماً مميزاً في ظروف الأمة الصعبة يتفق معه الملايين وقد يختلف معه كثير من الناس، لكنه تمسك بالحق وحرص على صناعة القوة وتأمين المقاومة، لأنه كان يخوض المعركة عقوداً من الزمن نيابة عن الأمة كلها ويصنع مشروعاً لا يزول بزوال الرجال.

*الأمين العام السابق لحركة البناء الوطني الجزائرية

نجمة صبحنا القريب

السيد والمقاومة والدولة

علي فياض *

تثير المرحلة الراهنة بتحولاتها الكبرى أسئلة كثيرة، تعيد التركيز على قضايا جوهرية وأخرى إشكالية، وتشهدُ بيئات مختلفة، النقاشات المترتبة على هذه الأسئلة، وفقاً لخلفيات متعددة ومنطلقات متعارضة، وهذا طبيعي تماماً، ذلك أن الواقع متغيّر والأفكار بحكم علاقتها بالواقع، إما أن تتخلف عنه فتُصاب بالجمود، وإما أن تجاريه بهدف الاحتواء والمواكبة، وهنا تولد نزعات التطوير والتكيُّف.

إن كل بنية فكرية . سياسية، والحديث هنا حصراً عن الفكر السياسي، تنطوي من حيث كونها على صلة بالمجال السياسي، على ثوابت ومتغيرات، على مفاهيم مركزية ثابتة، تتسم بالديمومة، وأخرى فرعية أو مرحلية تتسم بالتغيّر والتطور تبعاً لطبيعة المرحلة.

إن إحدى الإشكاليات الكبرى، التي كانت حاضرة دوماً، في الأدبيات السياسية اللبنانية، وعلى مدى عقود، هي علاقة المقاومة بالدولة، وفي مجرى البحث في هذه الإشكالية، ذهب كثيرون إلى مديات أبعد، فجرى ربط الموضوع بنظرة الطائفة الشيعية إلى الدولة وعلاقتها بالكيان اللبناني.

في الواقع، لم تكن هذه الإشكالية مغفلة لدى قيادة حزب الله ولا داخل أجهزة التفكير لديه، وعلى مر السنين، كان ثمة رؤية في طور التبلور، ارتسمت عناوينها الكبرى ومرتكزاتها الأساسية في محطات عدة ومواقف مختلفة ووثائق جرى إعدادها. لكن رغم ذلك، لم يتسنَّ إبراز الرؤية تجاه الدولة على نحو متكامل، نظراً إلى تداعي الأوضاع اللبنانية على نحو دراماتيكي منذ عام 2005، وبعد ذلك مع انفجار الأزمة السورية بتداعياتها على الواقع اللبناني.

وكان سيد شهداء الأمة سماحة السيد حسن نصر الله (قدس سره) قد أعلن في إحدى خطبه قبل الأزمة السورية، أنه سيعلن قريباً وثيقة تتضمن رؤية حزب الله للدولة، ولكن هذا الأمر لم يحصل، بسبب تدهور الأوضاع. وكان يقصد بتلك الوثيقة رؤية من عشرات الصفحات جرى إعدادها تحت عنوان: «نحو دولة قادرة وعادلة». وتضمّنت تلك الوثيقة مقاربة مفهومية وقطاعية حول مختلف الجوانب التي تُعنى بها الدولة، وفي مرحلة تالية، جرى تطوير هذه الوثيقة وإدخال تعديلات عليها.

في محطة لاحقة، أعلن سيد شهداء الأمة في إحدى خطبه، أن شورى القرار في حزب الله اتخذت قراراً لا يزال طيّ الكتمان، وهو يعلنه على مسؤوليته، يتبنى لبنان وطناً نهائياً لجميع أبنائه، وهي العبارة التي كان قد أطلقها سماحة الإمام السيد موسى الصدر، ثم وردت في اتفاق الطائف، قبل أن تتحول إلى نص في الدستور اللبناني.

في الحقبة الأخيرة، انكبَّ سماحته على قراءة كل ما يقع بين يديه من كتب حول التاريخ الحديث للبنان وتاريخ الطائفة الشيعية، وقد تجمّع لديه عدد لا يُستهان به من المراجع والكتب التي قرأها بتمعّن وتأنٍ، وبات شغفه بالقراءات التاريخية جَلياً أمام من يلتقيه، وأدى ذلك إلى إدخال البعد التاريخي في تحليله ومواقفه وبلورته لرؤاه تجاه التحديات المعاصرة.

وبرز ذلك بوضوح شديد، في اللقاءات المتعددة التي عقدها في المرحلة الأخيرة، مع المجالس المركزية في حزب الله، إذ خصص أمسية بأكملها للقاء كل مجلس على حدة، وكانت مدة اللقاء تقارب ستّ ساعات، يقضي نصفها الأول في عرض قراءاته التاريخية وخلاصاته، والقواعد التي يمكن الاستفادة منها في مقاربة القضايا المعاصرة.

لا ريب، أن ثمة أموراً كثيرة يجدر الحديث عنها، في هذه اللقاءات، نظراً إلى حداثتها، ولكونها تشكل تتويجاً لمسار تطوره الفكري والسياسي، ومن ضمنها ما يتصل بالنظرة إلى الدولة والكيان.

ففي أحد هذه اللقاءات، طلب من المعنيين، التفكير جدياً في كيفية بناء الدولة القادرة والعادلة، وعند استعراضه لمجريات مؤتمر وادي الحُجير الذي انعقد في عام 1920، لتحديد الخيار الشيعي من الكيان الوليد، دولة لبنان الكبير، أبدى ارتياحه لما آلت إليه الأمور وقتذاك، من حيث أن جبل عامل بات جزءاً من دولة لبنان الكبير.

لم يكن السيد الشهيد بحال من الأحوال، ممن يمكن أن يُظهر أي رضى عن مشروع تقسيم المنطقة إلى دويلات من قبل الاستعمارَين الفرنسي والإنكليزي. فهذا يتناقض مع رؤيته وعقيدته السياسية، ولكن في الوقائع التي تكرّست في تلك المرحلة، وباتت حقائق قائمة، فإن ثمة إدراكاً عميقاً من قبل سماحته لخصوصية الكيان اللبناني و ميّزاته وفرادته بالمقارنة مع طبيعة الكيانات الأخرى.

لم يكن السيد ممن يمكن أن يرضى عن مشروع تقسيم المنطقة إلى دويلات من قبل الاستعمارَين الفرنسي والإنكليزي بما يتناقض مع رؤيته وعقيدته السياسية، ولكن في الوقائع التي تكرّست وباتت حقائق قائمة، كان ثمّة إدراك عميق لديه لخصوصية الكيان اللبناني وميّزاته وفرادته

ومن المعروف أن الشخصيات الشيعية التي اجتمعت في وادي الحُجير بقيادة السيد عبد الحسين شرف الدين، اتخذت قراراً بمبايعة حكومة الملك فيصل في دمشق، على أن يكون جبل عامل جزءاً من الدولة العربية (سوريا الكبرى)، إلا أن هذا الأمر لم يأخذ طريقه للتطبيق، وسريعاً ما انهار مشروع الدولة العربية لأسباب كثيرة، منها أداء الملك فيصل نفسه، الذي كان يُجري اتصالات سرّية مع الفرنسيين، والذي انتقل إلى العراق مع سقوط دمشق بيدهم.

في تلك المرحلة كان ثمة نظام إقليمي جديد، قيد التشكّل، برعاية دولية، وبإدارة من الدول الكبرى، التي كانت تقوم بينها تفاهمات وصراعات في الوقت ذاته، وفي ظل اختلال هائل في موازين القوى، لمصلحة تلك الدول.

لم تكن المقاربة الشيعية وقتذاك، تأخذ في الحسبان التحولات الإستراتيجية الكبرى، بقدر انجذابها الفطري إلى المقاربة الأخلاقية والمبدئية التي تنطلق من نزوع وحدوي وميل متأصل لمواجهة الاستعمار.

ومن حيث النتائج، دفع جبل عامل، الذي تُرك وحيداً دون مؤازرة من رفاق الخيار الوحدوي، ثمناً باهظاً، عندما اجتاحه الفرنسيون، ومارسوا تجاهه سياسة الإفقار والإذلال والتهميش.

في غضون سنواتٍ خمس، تحوَّل السيد عبد الحسين شرف الدين، من رمز الاتجاه الوحدوي، إلى رمز الاتجاه الكياني. وتبلور في الاجتماع السياسي الشيعي، اتجاهان:

الاتجاه الكياني الذي مثّله السيد شرف الدين، بالإضافة إلى شخصيات أخرى دينية وسياسية، من أبرزهم كبير علماء جبل عامل في ذلك الوقت، الشيخ حسين مغنية والشيخ يوسف الفقيه وآخرون.

واتجاه آخر ظلَّ على ميله الوحدوي، وكان من أبرز رموز هذا الاتجاه العالم الأديب الشيخ أحمد رضا والعالم الشيخ سليمان الضاهر وصاحب «مجلة العرفان» الشيخ عارف الزين، بالإضافة إلى تجمعات عدة بينها «الشبيبة الوطنية» وغيرها.

ورغم انقسامات حادة سادت بين الاتجاهين، إلا أنهما، على ما أعتقد، شكّلا مصدر التكوين التاريخي الحديث للهوية السياسية للشيعة اللبنانيين. لقد برز هذا الأمر في اتحاد الموقفين عام 1925، في بلدة النبطية في الكيفية التي تعاطيا بها مع انفجار الثورة السورية الكبرى، للحؤول دون انزلاق جبل عامل إلى اضطرابات أمنية، تتناقض مع طبيعة المرحلة الجديدة.

ويمكن القول، إن تجربة الإمام الصدر هي استكمال لتجربة الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين، وهو هضم في خطابه وفكره السياسي كلا الاتجاهين المشار إليهما. أي الاتجاه الكياني الوطني والاتجاه الوحدوي العروبي الإسلامي، وللتأكيد، فإن الإمام الصدر هو صاحب مقولة: «لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه»، التي دخلت الدستور اللبناني في السطر الأول من البند الأول في مقدمته.

كما إني أعتقد، بأن الشيعية السياسية المعاصرة، إنما ورثت هذا التوجُّه برافديه التاريخيين، إذ باتت متمسكة تمسكاً راسخاً بنهائية الكيان اللبناني وخصوصيته، مقترناً مع ترجمة الانتماء الوحدوي بانحياز صلب للقضية الفلسطينية، ونزوع تحرري وطني في مواجهة الكيان الصهيوني، وإدراك عميق لموجبات الجغرافيا السياسية اللبنانية الضيّقة التي تحتاج دوماً إلى عمق جيو . إستراتيجي يسدّ مواطن ضعفها.

لم يكن سيد شهداء الأمة، سماحة السيد حسن نصر الله (قده)، بعيداً عن التشكُّل التاريخي لهذا المسار، بل كان في صلبه، ومثّل حلقته المعاصرة، وتتويجاً لتجربة أخذت وقتها في التفاعل التاريخي بنتائجها الفكرية والاجتماعية والسياسية، وانطوت على تحولات كبرى ذات دلالة.

ولا بدّ من القول إنه بعد مرور أكثر من قرن على ولادة الكيان اللبناني، لم يعد بين المكونات اللبنانية من يسعى إلى أو يريد إلحاق الكيان اللبناني بكيانات سياسية أكبر، لا قومياً ولا إسلامياً. علينا أن نقرأ التغيرات الكبرى التي طرأت على المفاهيم والأفكار والوقائع الاجتماعية والسياسية على حد سواء.

إنّ مفهوم الأمة الواحدة يجب أن يبقى راسخاً ومستمراً. لكنه لا يتعارض البتَّة مع تعددية كيانية، وإنّ مشروعات الوحدة العربية والإسلامية باتت تحتاج إلى مراجعة وتجديد، يتُيح لها الولوج في مسار تاريخي قابل للتطبيق العقلاني، عبر فتح فضاءات التعاون والتكامل والتطور التاريخي.

إنّ بلوغ الوحدة بات محكوماً بعقلانية الوحدنة كعملية تاريخية تُصنع وتنمو وتتطور، بديلاً من التوحيد (بين كيانات متعددة) كموقف مفروض، أو كحقيقة ناجزة، أو كمشروع بسماركي يُفرض قهراً.

وإن هذا الاتجاه لا يكتمل، إلّا بالمرور حصراً، بإعادة الاعتبار إلى مفهوم الدولة الوطنية كحقيقة غير قابلة للتجاوز، وتحتاج إلى كل جهد للبناء والتطوير.

وبالعودة إلى اللقاءات الداخلية، التي كان يعقدها السيد الشهيد، والتي أشرنا إليها ،كانت قد سبقتها لقاءات أخرى، أكثر اتساعاً ضمَّت الكادرات والمسؤولين الميدانيين تنظيمياً وجهادياً على مستوى المناطق، وكان السيد الشهيد يخاطب الحضور عبر الفيديو. وكانت هذه اللقاءات تُعتبر داخلية وخاصة.

في اللقاء الذي انعقد مع منطقة الجنوب اللبناني، أطلق السيد الشهيد موقفاً صارماً: «لو أعطوني الدنيا وما فيها، كي أتخلى عن فلسطين والقدس، ما فعلت، هذه قضية عقائدية...»

هنا ترتسم هذه الثنائية الإيجابية، التي تحتوي إشكالية جدية وشديدة التعقيد تتصل بهذا التوازن الصعب، الذي تواجهه المقاومة باستمرار في الالتزام بمقتضيات المجال المحلي الوطني أو الكياني، مع اختلاف الدلالات، والمجال الوحدوي أكان قومياً أم إسلامياً، والذي تُشكّل القضية الفلسطينية موضوعه الأساسي، علماً أن كلا المجالين يتقاطعان من وجه، عند الصراع مع إسرائيل. وتندرج إشكالية علاقة المقاومة بالدولة في السياق نفسه، ولكنها تزداد تعقيداً، عندما يُقارب الموضوع من زاوية المجال الإقليمي الذي يتصل بالقضية الفلسطينية، في حين أنها تتراجع إلى المستوى الوطني الصرف، عندما تقارب من زاوية الدور المحلي للمقاومة.

ويبدو أن المرحلة الراهنة بتحولاتها المستجدة، تنحو باتجاه تغليب البُعد الوطني.

من الواضح أن هناك من يسعى إلى استثمار اللحظة الراهنة بتداعياتها إلى أقصى حد، ويحُاول قراءة المرحلة بمنطق تأبيد نتائجها وتحويلها إلى مُعطى إستراتيجي دائم، وهذا خطأ مفهوم تكتيكياً، ولكنه يقع في أخطاء إستراتيجية ذات تداعيات خطيرة.

لأنه لا يأخذ في الحسبان الوزن الشعبي للمقاومة، بوصفها أكبر التيارات السياسية امتداداً داخل الساحة اللبنانية، ولأن مراعاة المقتضيات الميثاقية والتوازنات العميقة بين المكونات يجب أن تكون حاضرة في المنعطفات الكبرى، ولا يجوز التغافل عنها أو الاستهانة بها، ولأن أصحاب تلك القراءة لا يمدون قراءتهم إلى الأفق المتفجّر الذي سيصيب المنطقة بأكملها، وخصوصاً الدول الحليفة لأمريكا من جراء سياسات ترامب الاقتلاعية للفلسطينيين في غزة والضفة الغربية.

لقد شكلت حرب الإسناد الاختبار الأكبر الذي واجهته المقاومة، في ترجمة ذلك التوازن الصعب الذي سبقت الإشارة إليه.

إن فرضية العزوف عن إسناد غزة، كانت لتشكل تقويضاً خطيراً لمصداقية المقاومة ومواقفها وأدبياتها، وفي المقابل إن الانخراط في المعركة، ينطوي على مخاطر محتملة تهدد الداخل اللبناني بتعقيداته المعروفة، سياسياً واقتصادياً، فضلاً عن النتائج التدميرية بشرياً وعمرانياً.

لقد قاد السيد الشهيد الموقف، وفقاً لمعادلة إسناد تقوم على استنزاف العدو وفقاً لقواعد اشتباك وممارسة الضغوط المحسوبة عليه، مع رفض الانزلاق إلى حرب مفتوحة محلياً أو إقليمياً. ومن الناحية العملية والسياسية، كان السيد الشهيد، يسعى بشكل حثيث، إلى حماية لبنان، مراعاةً لخصوصيته وأخذاً في الحسبان وضعيته وظروفه ومصالحه، إلا أن تطور المواجهة الميدانية، أخذ منحى آخر، بفعل الأهداف الإسرائيلية والنوايا والتحضيرات التي تتجاوز لحظة حرب الإسناد وما يتصل بها.

في الحالة الراهنة، ثمة مرحلة جديدة، من الخطأ تبسيط التحديات التي تطرحها وتسطيحها، وإن بعض هذه التحديات، يشكّل فرصة يجب التقاطها، كما في الحديث عن الإصلاح وإعادة بناء الدولة، فيما أن بعض التحديات الأخرى، تأخذ منحى متصاعداً، يرفع مستوى المخاطر السيادية، مثل استمرار الاحتلال والاعتداءات الإسرائيلية أو في مساعي تكريس الهيمنة الأميركية والإملاءات الخارجية على القرار السيادي اللبناني.

إن مسار الإصلاح يجب أن ينطلق، مع توفير كل مقوِّمات الدعم والنجاح له، ذلك أن التداعي في قدرة الدولة على تأدية وظائفها الأساسية بات خطيراً، كما إن تحوُّل اللا-استقرار إلى سمة دائمة في الحياة السياسية اللبنانية، بات مولِّداً لصورة الدولة الفاشلة والمجتمع المتفسِّخ والاقتصاد المُنهار، إذ استُنفدت كل الهوامش التي تتيح الاستمرار بحالة اللادولة وتأجيل الحلول.

في ما يتعلق بالتحديات الأخرى، وهي خطيرة بكل المقاييس، فإن إدارتها بتهوّر أو تسرّع أو إذعان للخارج، من شأنه أن يهدد الاستقرار الداخلي ويطيح بمسار التعافي السياسي والاقتصادي.

إن المرحلة تفرض موضوعياً أولوية البعد الوطني على ما عداه وتفرض مواجهة التحديات التي باتت في عقر دار الساحة اللبنانية، وتفرض رفع منسوب التفاهمات الداخلية في مواجهة الضغوطات الخارجية الهائلة التي تحاول ابتزاز الموقف اللبناني، لأنه كلّما توحَّد الموقف اللبناني بصورة عامة، كلما تراجعت فعالية هذه الضغوطات، وكلما اتسعت الشروخات الداخلية، كلما ازدادت فعالية الضغوطات الخارجية، وتستدعي المرحلة أيضاً، أكثر من أي وقت مضى تفاهماً بين الدولة والمقاومة.

إن دعوات البعض إلى لبنان دون مقاومة، هي دعوة إلى الوقوف بالعراء في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي وعدوانيته وانقلابه على ورقة الإجراءات التنفيذية للقرار 1701، رغم التزام لبنان الصارم بموجباتها.

مع إدراكنا التام لخصوصية المرحلة وتعقيداتها، التي فرضت على المقاومة الانتقال من حالة المقاومة النشطة إلى حالة المقاومة الكامنة، بفعل تقدّم الدولة لإدارة الموقف المترتب على مرحلة تنفيذ القرار 1701، ونحن نتطلع إلى إطلاق مسار تأهيل الدولة لدورها وقدراتها في الدفاع عن الأرض والشعب في جنوب لبنان بصورة خاصة وعلى مدى كل المناطق اللبنانية بصورة عامّة.

لقد ولدت المقاومة بالأصل من رحم البيئة اللبنانية في ظل الفراغ الدولتي، ونمت في المجال الذي لم تبادر الدولة إلى إملائه وهو مجال الحماية والدفاع، ولهذا كلما تقدمت الدولة في تطوير قدراتها الحمائية والدفاعية والردعية، كلما تقلّصت الحاجة إلى أي بدائل.

إن طبيعة الفعل المقاوم متغيّرة بين مرحلة وأخرى، وتبعاً لطبيعة الظروف والتحديات، إلا أن إرادة المقاومة ثابتة، وهي التي تبقى ملحة وضرورية ويجب أن تبقى صلبة في مختلف المراحل.

ولهذا، إننا عندما نرفع شعار أنّ المقاومة باقية ومستمرة، فإننا نعني ما نقول، بالاستناد إلى السياق المشار إليه، وإن عنوانَي السيادة والإصلاح، كقضيتين كبيرتين حاكمتين على مجمل التحديات والمهمات الوطنية في المرحلة الراهنة، إنهما متعاضدان ويتكاملان، وفي حال تعثّر أحدهما، فسيترك تأثيراته السلبية على الآخر.

* أستاذ جامعي ونائب في البرلمان اللبناني

الأمل والوعي: خطابٌ يحملنا إلى فلسطين

بدر الإبراهيم

«ولّى زمن الهزائم وجاء زمن الانتصارات»

لن تمر هذه العبارة مرور الكرام على شخص ينتمي إلى جيلٍ تفتّح وعيه على نهج مدريد وأوسلو، حيث ينبغي عليه أن يرث الهزيمة، ويسلّم بها، ويعتبر تحسين شروطها مُنجزاً. في ظل نشر ثقافة الهزيمة في التسعينيات، ووصول الأمة إلى قاعٍ جديد، بدأ خطاب السيد يصنع بقعة أمل وسط اليأس، ويغذّيها بعملٍ مقاومٍ فعّال، ويؤسّس لزمنٍ عربي موازٍ لزمن الخنوع، يقدّم الفرصة لمن يريد مطاردة حلم التحرّر من الهيمنة، والخروج من أقفاص الاستعباد المُذهّبة.

قال لا في وجه من قالوا نعم، وراكم الآمال بعملٍ قاد إلى خلق نموذج عملي. لم تعد المسألة بعد ذلك مجرد تنظير، فقد بات لأنصار خيار المواجهة دليلٌ عملي قاطع: انتصارٌ واضح بتحرير أرضٍ عربية من الاحتلال عام 2000. هكذا تفرّد السيد، إذ أصابت بندقيته الهدف بدقّةٍ متناهية، فأثبتت أن الهزيمة ليست قدراً، وأن النصر ممكن بمراكمة أفعال المقاومة.

لا يحملك خطابه نحو العزة والكرامة والأمل المتمدّد وحسب، بل إن صناعة الوعي هي في قلب خطابه. يخاطب العقول والقلوب معاً باستثنائية مدهشة، ويعيد التأكيد على أساس الصراع في المنطقة: الاحتلال والهيمنة، ويوجّه البوصلة في كل مرة صوب فلسطين، ويشدّد على التناقض الرئيسي مع الغرب الاستعماري.

يكرّس لغة التحدي والانتصار في عام 2006. خطابه وعمله يقرّبانك أكثر من فلسطين. تبدو خطاباته حاجة مستمرة للفهم ورؤية اتجاه البوصلة. شخصٌ لم يعش عصر عبد الناصر وسمع عن تأثير خطاباته في الأسلاف، سيجد في خطاب السيد (مع اختلاف واقع الرجلين) شيئاً من تلك العزة والتحدي والعنفوان، والسعي لكرامة الأمة. يمكن أن يقول ما لا تتفق معه، لكنّ خطابه سيظل يشدّك ويمنحك الإيجابية والأمل بانتصارٍ جديد وكبير.

هذه عمامةٌ شيعية، لكنها لم تدر ظهرها للأمة من أجل الطائفة ومكاسبها. كان يمكن للسيد أن ينكفئ وينعزل داخل طائفته، ويتمتع بزعامتها الإقليمية لا اللبنانية وحدها، ولا يخوض معركة «السنّة» كما تقول الانعزالية الشيعية اليوم بصوتٍ عالٍ

لكن، كيف لعروبي يساري، لديه إشكال أيديولوجي مع الإسلامِ السياسي، أن يرى الأمل والوعي في عمامةٍ عقيدتها ولاية الفقيه؟ هذه عمامةٌ محفورٌ فيها اسم فلسطين، وفعلها المقاوم ينضح عروبة. السيد يدافع عن الأمة في مواجهة أعدائها، ويرفض تقسيمها، ويؤكد على ضرورة توحّدها، وهذا «عروبيٌّ» بما يكفي ليجعل عروبيين ويساريين يهمّشون كل اختلاف أيديولوجي معه، ويرون - كما يرى - التناقض الرئيسي مع العدو المحتل.

هذه عمامةٌ شيعية، لكنها لم تدر ظهرها للأمة من أجل الطائفة ومكاسبها. كان يمكن للسيد أن ينكفئ، وينعزل داخل طائفته، ويتمتع بزعامتها الإقليمية لا اللبنانية وحدها، ولا يخوض معركة «السنّة» كما تقول الانعزالية الشيعية اليوم بصوتٍ عالٍ، غير أنه وهب حياته لفلسطين. رغم تمذهبه في السياسة لم ينزلق السيد يوماً، حتى في عز الحروب الأهلية العربية، إلى خطاب التحريض الطائفي، أو تفسير تلك الصراعات طائفياً، كما فعل كثير من خصومه. كان يصنع الوعي بربط تلك الصراعات بالصراع الأساسي في المنطقة، ويرفض تأجيج الفتنة.

خطاب الأمل والوعي الذي حمله السيد ترك بصمته في من اعتبروا مواجهة الهيمنة الغربية، ومقاومة الاحتلال، في رأس أولوياتهم، ومنهم فئة لديها هذه الأولوية في الخليج والجزيرة العربية، من أعمار وخلفيات مذهبية متعددة، لكنّ القابلية العالية في تلك المنطقة لانتشار الخطاب الطائفي والدعاية الغربية، أسهمت، إلى جانب أسباب أخرى، في أن تكون الموجة الأعلى سلبيةً تجاه خطابه وعمله.

أسباب عدم التغلب على متاريس الطائفية في منطقتنا بحاجة إلى تحليل يطول، لكن السيد فرض حضوره حتى على خصومه وكارهيه، الذين تتبّعوا خطاباته، وردّوا عليها، وتفاعلوا معها، وما كان لكثيرٍ منهم، رغم حقدهم، إلا أن يقرّوا بقدرته وتأثيره وهيبته. أثّر السيد على الحرَكات الشيعية المتأثّرة بخطابه في الخليج، بتعزيز الوعي عندها بضرورة تجنب الصدامات الطائفية، والسعي لحل الأزمات في إطار الحفاظ على السلم الأهلي، وهذا جنّب تلك المجتمعات أهوالاً عديدة. لكنّ تأثيره الأكبر كان في اليمن، حيث ظهرت حركة تستلهم منه الأدوات اللازمة للعمل، وتتجه ببوصلتها نحو فلسطين.

السيد صانع الأمل يترك إرثه لمن لا تنحرف بوصلته: فلسطين قبلةً للتنظير والعمل، تتوحّد عندها الأمة، وتتسامى على اختلافاتها الأيديولوجية والمذهبية، والمقاومة سلاحاً يمكن من خلاله هزيمة الهزيمة في الوعي وفي الميدان.

* كاتب عربي



نجمة صبحنا القريب

قاهر «إسرائيل»: نصرالله آيتنا

سيف دعنا*

«وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ»
قرآن كريم (البقرة: 99)

«إنه ينهض قبل بزوغ النهار، يتأمل كثيراً وبحذر، كأنه في شراكة مع شجرة عجوز ثابتة في الأرض، فيما يتكئ بذقنه على آخر نجم يتلاشى، فيرى هناك في نهاية السماء المضطربة أشياء عظيمة ونقية تتكشف عن فرح وسعادة في المستقبل».
سان جون بيرس «اناباسيس (الصعود)»

... وفي اليوم الثالث والعشرين من شباط عام 2025، ستودع أمتنا أملها الأجمل والأكثر إشراقاً وسطوعاً لقرون خلت. سنودع أجمل أحلامنا وأبهاها، وأكثرها إلهاماً منذ قهرتْ أمتُنا الغزوتين الصليبية والمغولية بدماء أبطال يقاتل أحفادهم اليوم مغول العصر ببسالة تدهش العالم. سنودع أحسن من فينا، وأفضل من فينا، وأشرف من فينا، وأكرم من فينا، وأنبل من عرفنا وعرفت أمتنا لأجيال. سنودع من دافع، بكل ما استطاع، عن شرفنا وكرامتنا وإنسانيتنا حتى الموت، بلا تردد ولا تراجع ولا ضعف.

> سيودع العالم أفضل اللبنانيين إطلاقاً وستودّع فلسطين من كان وسيظل أكثر فلسطينية من أي عربي أو مسلم أو فلسطيني وستودع الإنسانية من كان أكثر عروبة من أي عروبي، وإسلاماً من أي مسلم، وإنسانية من أي إنسان أنجبته نساء هذه الأمة لقرون خلت

في اليوم الثالث والعشرين من شباط عام 2025، سيكون وجعنا كبيراً جداً وقاسياً جداً وصعباً جداً. فليس في كل التاريخ الحديث لأمتنا المحاصرة والمستهدفة والمستضعفة، ولم يكن لقرون مضت، وربما لن يكون أبداً، قائد فذ بطل عظيم شجاع حكيم شريف مؤمن مستبصر بصير، صاحب رؤية فذة وأكثر شجاعة وطهارة من سيد شهدائنا. وليست في كل تاريخ لبنان وتاريخ شعبه، وربما لن تكون أبداً، فكرة أجمل وأعظم وأرقى وأطهر وأشرف وأكثر وطنية وأخلاقاً من اللبناني الأفضل والشهيد الأقدس، السيد حسن نصرالله. وليس في كل تاريخ فلسطين المستعمَرة وتاريخ شعبها المظلوم والمعذب، ولم يكن منذ بدأت الهجمة الاستيطانية الأوروبية البيضاء على بلادنا، قائد عربي وبطل عظيم ظل على طول عمره الشريف يحترق كشمس ساطعة ليضيء لنا الطريق المظلم والصعب نحو القدس.

في اليوم الثالث والعشرين من شباط عام 2025، ستودع أمتنا فكرتها الأكثر عبقرية وجمالاً وبصيرة وإنسانية، وأيضاً الأكثر شجاعة وتضحية وإيماناً وفداء. فلم يكن في كل تاريخ العرب، ولقرون خلت، قائد عربي ومسلم «أشد للحرب والمقاومة مراساً، وأقدم فيها مقاماً من السيد الشهيد. نهض فيها وما بلغ العشرين، واستشهد في سبيلها وقد تجاوز الستين»، ولم يتردد، ولم يتعب، ولم يساوم، ولم يتراجع، ولم يضعف، ولم يهن حتى طرفة عين.

في اليوم الثالث والعشرين من شباط 2025، سيكون على قلوبنا أن تحتمل وجعاً ليس مثله أي وجع عرفناه قبلاً، أو وتعافينا منه سابقاً، أو حتى تعلمنا التعايش معه مراراً. في اليوم الثالث والعشرين من شباط 2025، سيكون علينا أن نودع مؤسس مقاومتنا، ورمز رجولتنا، وعنوان كرامتنا، وروح تاريخنا، وأيقونة ثقافتنا، ودرة حضارتنا، وفكرة أمتنا الأجمل لقرون، بروح مكسورة لن ينجينا من صعوبتها سوى حبنا الكبير له وحبه العظيم لنا والتزامنا الكامل وإيماننا المطلق بطريقه ونهجه. فمن منا جميعاً سيستطيع حتى مجرد أن يدرك أن سيد الأمة وسيد شهدائها، عقلها الفذ وعقلنا، قلبها الأجمل وقلبنا، روحها الأزكى وروحنا، قد استشهد ورحل عنا إلى الأبد؟ من سيتمكن منا أصلاً حتى أن يتخيل أن هذه القامة العظيمة، وهذا القديس المهيب، لن يقف أمامنا مرة أخرى، ولن يطلّ، كما فعل باستمرار، على أمة كانت دوماً تنظر إليه وتنتظره، لا أحد غيره، كلما احتاجت سداً منيعاً أمام أي انتهاك، وكل انتهاك لشرفها وكرامتها، فيُنزل علينا بكلماته السكينة والطمأنينة، برغم كل حروب الأعداء الدموية وهمجيتها. من سيقدر منا أصلاً حتى أن يقبل أن يتخيل أن عبقرية ذلك العقل الفذ والمدهش قد توقفت، وأن نبضات ذلك القلب الشجاع جداً قد هدأت إلى الأبد. من منا سيستطيع حتى أن يصدق أن سحر ذلك اللسان العربي البليغ، الذي كان يتحدث إلينا وإلى العالم ويحاورنا ويعلمنا ويثقفنا ويُنزل في قلوبنا السكينة والطمأنينة، كما لم يتحدث أي لسان آخر، قد سكت إلى الأبد؟ من له أن يتخيل أن مؤسس مقاومة أمتنا وقائدها وصوتها الأعلى وضميرها الأنبل وروحها الأجمل قد رحل عنا.

نعرف أنه يندر جداً، وقد لا يكون ممكناً أصلاً، أن تمر أي أمة أو شعب بمثل هذه اللحظات المؤلمة والقاسية والثقيلة التي ستطل علينا بكل أوجاعها وعذاباتها وآلامها في تلك الساعات من يوم الثالث والعشرين من شباط. لكننا يومها، لا ولن نطلب حتى الإذن بالانحناء عند قدميه والبكاء طويلاً، طويلاً. بل سنطالب بذلك كحق لنا، حتى وإن كنا نعرف، حتى وإن كنا نؤمن، وحتى وإن كنا على يقين، أن ذلك سيكون امتيازاً كبيراً، وتشريفاً عظيماً، وتكريماً هائلاً لكل عربي ومسلم وشريف يفعل. لقد كان سيد شهداء أمتنا ينتمي إلينا وإلى بلادنا وأمتنا وقضايانا كما لم ينتمِ إليها وإلينا أي قائد عربي أو مسلم آخر لقرون مضت، ولا يمكن لنا، لذلك، أو لأي أحد آخر أن يدّعي وجود رجال مثله وبمقامه في زمننا. فلقد كانت مسيرة شهيدنا التي عشناها معه يوماً بيوم، ولحظة بلحظة، وكنا شهوداً عليه وعليها، عظيمة وفذة ومدهشة، أكثر مما كان يمكن لنا حتى أن نحلم أو نطلب أو نتخيل أو نتمنى. لهذا، وغيره وأكثر، ملأ، وسيظل كذلك، اسمه وصوته وروحه الكون كله، من أقصاه إلى أقصاه. ولهذا وغيره وأكثر، سوف تظل ذكراه باقية حية أبداً، ما دام هناك عربي أو مسلم أو شريف ينطق بالحرف والكلمة في هذا العالم.

قاهر «إسرائيل»: الفلسطيني الأجمل

في اليوم الثالث والعشرين من شباط عام 2025، سيودع العالم في لبنان أفضل اللبنانيين إطلاقاً. فلقد كان، بحبه العظيم وتضحياته الهائلة من أجل لبنان وأهله، أكثر لبنانية من أي لبناني عرفته بلاد الأرز إطلاقاً. نعم. لقد فَضَّلَكم الله، يا أهل لبنان، علينا وعلى العالمين، بأن تفضل عليكم وجعله واحداً منكم. لكنه تفضّل علينا أيضاً وفضّلنا على العالمين بأن جعله فلسطينياً بحبه اللامحدود لفلسطين وأهلها وحب فلسطين وأهلها اللامحدود له.

لذلك أيضاً، وغيره وأكثر، ستودّع فلسطين، في أصعب اللحظات في تاريخها، من كان، وسيظل أبداً، أكثر فلسطينية من أي عربي أو مسلم، أو حتى من أي فلسطيني إطلاقاً. لقد كان سيدنا الحبيب فلسطينياً بقلبه وروحه حتى النهاية، يحب فلسطين وأهلها وتحبه فلسطين ويحبه أهلها. لقد أحب فلسطين وأحب أهلها جداً حد استشهاده سعيداً على طريقها وفي سبيلها وسبيلهم. لذلك وغيره وأكثر، لم يكن شهيدنا الأقدس أكثر المسلمين فلسطينية فقط، أو حتى أكثر العرب فلسطينية كذلك، بل ولا حتى أكثر الفلسطينيين فلسطينية. لقد كان هذا السيد العظيم هو الفلسطيني الأجمل إطلاقاً، والفدائي الأطهر والأكثر إخلاصاً على طريق فلسطين والقدس، وكأنه أراد لمعرفته الأكيدة بعشقنا الكبير له أن يعطينا سبباً جديداً وقوياً آخر لنحب فلسطين أكثر، إن كان ذلك ممكناً، وأراد أن يعطينا سبباً آخر وقوياً حتى لا نتردد بالموت من أجلها، إن لزم الأمر.

في اليوم الثالث والعشرين من شباط عام 2025، سيكون الألم قاسياً جداً. فلسوف تودّع أمتنا وستودع الإنسانية من كان أكثر عروبة من أي عروبي، وإسلاماً من أي مسلم، وإنسانية من أي إنسان أنجبته نساء هذه الأمة لقرون خلت. سنودع واحداً منا، من لحمنا ودمنا، ولد مثلنا جميعاً من لحم ودم، ولكنه كان مقدراً أن يكون عظيماً، يؤسس أعظم وأشجع مقاومة ويقودها ضد أكثر بؤر التوحش والظلم والاستكبار في العالم وأكثرها همجية وكأنه رجل من فولاذ.

وفي اليوم الثالث والعشرين من شباط 2025، ستودع أمتنا والعالم قاهر «إسرائيل»، ومحطّم فكرتها والمؤسس، بجهاده ودمه الشريف، لزوالها. سنودع من أثبت فعلاً وقولاً للأمة وللعالم بأسره، وللكيان البغيض أيضاً، أن «إسرائيل» هذه تقهر، وأنها «أوهن من بيت العنكبوت»، وأنها ليست باقية ولا قائمة إلى الأبد، كما بدا لها وللكثيرين من العرب المهزومين وحكامهم ونخبهم وحتى مثقفيهم حتى قهرها سيد الشهداء وجيشه العظيم وحطم فكرتها إلى الأبد. في اليوم الثالث والعشرين من شباط 2025، سنودع من قاد جيشاً عظيماً من المقاومين المدهشين البواسل لأربعين عاماً ليعيد الاعتبار للتاريخ والحقيقة بتحطيمه وهزيمته للأسطورة التي قامت عليها أسطورة الكيان وعصابات جيشه.

لم يولد ليموت

لم يكن سيد شهدائنا في حياته الشريفة مجرد قائد أو زعيم ثوري آخر عرفته الأمة والعالم في الموقع المضاد لمنظومة الهيمنة الكونية المتوحشة، بل كان القائد الأهم والأقدر والأشجع والأذكى والأكثر براعة في مواجهتها أيضاً، ليس في الميدان فقط، بل وفي معركة الثقافة أيضاً. فرغم الثقل الهائل لمهمة قيادة مقاومة أمتنا لعقود دفاعاً عن وجودها وحقوقها وكرامتها وشرفها في وجه أعتى الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ وأكثرها وحشية، كان السيد أيضاً المعلم الذي حمل على عاتقه مسؤولية التصدي لغزو أيديولوجي كاسح لم يعرف تاريخ العالم مثيلاً له. فلقد قاد السيد الشهيد ولعقود طويلة مهمة إعادة تثقيف أمة كاملة في مواجهة الغزو الثقافي الاستعماري الكاسح وغير المسبوق الذي يستهدف كل العالم، وتحريرها من القابلية للخضوع والذل والاستكانة. ورغم أن منظومة الهيمنة الكونية تستند إلى خطاب ودعاية وبنية تحتية هائلة من أدوات صناعة الأيديولوجيا ومؤسساتها (مراكز أبحاث، جامعات، إعلام، سينما، دور نشر، إلخ) بإمكانات إمبراطورية هائلة وخيالية مالياً وتقنياً وبشرياً، لم يكن في الطرف المقابل في كل المنطقة العربية، وحتى في جزء كبير من العالم حقاً، إلا رجل واحد وحيد، يتصدى لها ويحاربها ويعمل على نشر وتعميم الثقافة المضادة للهيمنة لتحرير عقول الناس وفك أسر أرواحهم من قيود الذل والتبعية وينتصر كما سيشهد العالم.

كان السيد الشهيد أيضاً، القائد والمنظّر السياسي الأهم لأجيال، بسبب قدرته الاستثنائية على ترجمة الرؤية السياسية والنظرية إلى خطوات عملية ملموسة واشتقاق برامج عمل للمقاومة لا ولم يضاهِه، ولا ولم يتفوق عليه فيها، أي قائد آخر في كل تاريخ حركات التحرر في التاريخ الحديث. فلم تكن مجرد مصادفة أن يتمكن السيد الشهيد، المنظّر السياسي العربي الأكثر براعة والأهم لأجيال خلت، وفي مدة قياسية أن يرتقي بعدد قليل من مجموعات الغوار التي تأسست لمقاومة الغزو الصهيوني للبنان في 1982 إلى قوة إقليمية استطاعت هزيمة العدو مراراً. ولم تكن مصادفة أيضاً أن يتمكن السيد الشهيد من إسقاط كل المخططات الغربية المستمرة لإعادة تشكيل المنطقة وفقاً لمتطلبات المصالح الإمبريالية والصهيونية، رغم ما يعنيه ذلك من الاصطدام بمصالح وقوى محلية وإقليمية (وحتى عربية) وعالمية هائلة، تفسر إلى حد كبير الحملات المتواصلة عليه شخصياً وعلى المقاومة الإسلامية في لبنان.



لكن، ربما يكون الإنجاز الأهم للسيد الشهيد نصرالله، أنه أقام بحياته وجهاده واستشهاده الحجة القاطعة على كل التقاليد السياسية والفكرية العربية والإسلامية في العصر الحديث، كما على كل الحركات والأحزاب السياسية العربية بتنوعها وتنوع مشاربها الفكرية، وعلى المقاومين والمثقفين العرب فرادى ومجتمعين منذ سؤال النهضة الأول في القرن التاسع عشر وسيظل يقيمها، رغم استشهاده (وبسببه أيضاً)، إلى ما بعد يوم التحرير: أن أمتنا، بتاريخها وثقافتها وحضارتها وعقائدها وبشرها ومقدراتها، تمتلك فعلاً وبلا أي ذرة شك، كل مقومات المواجهة والانتصار والتحرر وتحرير فلسطين ومقدراتها. إنجاز الشهيد نصرالله الأهم، بالتالي، أنه أقام الحجة القاطعة للقضية العربية والإسلامية وللفكرة العربية-الإسلامية بشكل مدهش لم نعرفه ولم يعرفه العالم من قبل. وإنجاز الشهيد نصرالله الأهم الآخر أنه أيضاً، بتجربته المدهشة أقام الحجة القاطعة على كل قوى التحرر والمقاومة في العالم: أن أمتنا (تاريخاً، وثقافة، وحضارة، وعقائد، وبشراً ومقدرات)، وحركاتها المقاومة يمكنها أن تقدم المساهمة الأهم، فكراً وممارسة، للثورة العالمية وتحرير العالم، وليس فقط تحرير بلادنا وفك أسر شعوبنا من قيود الهيمنة والاستغلال والتوحش.

لهذا بالضبط، توقف سيد شهدائنا منذ وقت طويل عن أن يكون مجرد مواطن لبناني، أو عربي، أو حتى مسلم. كانت هذه التصنيفات أصغر كثيراً من أن تحتويه وتحتوي هذه الطاقة الإنسانية والجهادية الهائلة. فلم يكن شهيدنا الحبيب مجرد قائد آخر لحركة مقاومة عظيمة أخرى في سجل طويل من الحركات العظيمة والقادة الاستثنائيين. فليس فقط أنه أصبح ومنذ عقود القائد التحرري الأممي الأهم والأعظم لعقود خلت، بل وشكّل أيضاً بشخصه ومواصفاته وموهبته وتجربته الفذة نقطة تحول كبرى في تاريخ الثورة العالمية سيكون من المستحيل معها وبها أن يعود بعده كما كان قبله أبداً.

كان شهيدنا العظيم يعرف، كما تعلمنا منه، أن طريقه، وطريقنا من بعده، ستكون طويلة وصعبة ومؤلمة لكنها ستصل بنا حتماً نحو عالم أفضل وأجمل وأكثر عدلاً وحرية، قدم السيد حياته من أجله. لهذا، وغيره الكثير الكثير، سنودعه في يوم الثالث والعشرين من شباط 2025. سنبكي بحرقة، وسنبكي بحسرة، وسنبكي بألم. لكننا نعلم علم اليقين، أن شهيدنا الأعظم والأقدس، السيد حسن عبدالكريم نصرالله، سيكون بلا أدنى شك أحد الأسماء الخالدة القليلة جداً التي لم تولد لتموت.

*كاتب عربي

في آب 1992، التقى فرنسوا بورغا، عالم السياسة الفرنسي البارز، المتخصص بشؤون الحركات الإسلامية، السيد حسن نصر الله بعد مدة وجيزة من تعيينه أميناً عاماً لحزب الله. عزز هذا اللقاء قناعة بورغا بفرضيته الرئيسية، والتي أثارت نقاشاً واسعاً ومحتدماً في الأوساط الأكاديمية والسياسية على حد سواء، في فرنسا وفي خارجها، حول الحركة الإسلامية باعتبارها استمرارية لحركات التحرر الوطني في الفضاء العربي-الإسلامي. ووفقاً له، فإن هذه الحركة قد أخذت على عاتقها إنجاز أهداف التحرر الوطني في بعض بلدان هذا الفضاء التي لم تتحقق فيها هذه الأهداف، كفلسطين ولبنان مثلاً، واستكمال هذا المسار التاريخي في بعضها الآخر عبر الانتقال نحو الاستقلال الثقافي عن مركزية النموذج الغربي. وقد خص فرنسوا بورغا «الأخبار» بهذا المقال عن لقائه الأول مع سماحة السيد الشهيد.

صوت الجنوب المقاوم

فرنسوا بورغا*

في ذلك العام، اخترت أن أقضي جزءاً من الصيف في بيروت، قادماً من مقر إقامتي في القاهرة. كانت بيروت مدينة اكتشفتها لمدة وجيزة عام 1964، ثم لمدة أطول في عام 1967. جئت للاستمتاع بالإجازة، وكذلك لمواصلة سعيي، الذي لم يكن كافياً بنظري بعد، لإتقان اللغة العربية، وذلك عبر حضور الدورات الصيفية في جامعة القديس يوسف. في عام 1978، كنت قد بدأت بالفعل في حضور إحدى هذه الدورات المكثفة في الجامعة. لكن القصف اليومي على الأشرفية حال دون ذلك، واضطرّت الجامعة إلى تعليق دروسها. اكتفيت بالعمل على تحسين لغتي في منطقة الحمراء، خاصة مع بائعي عصير الجزر، الذي كان بمثابة إدماني اليومي؛ أو في أماكن أخرى على طرق البقاع أو في الجبل. وفي اليوم الذي زرت فيه شاطئ رملة البيضا، في قلب المدينة، تسبّبت سلسلة من الانفجارات العنيفة في فرار المصطافين بشكل هستيري. كان هناك ديبلوماسي حاضر اعتقد أن الانفجارات ناجمة عن «قنابل تزن على الأقل 500 كيلوغرام». لكنها في الواقع كانت مجرد استفزاز آخر من قبل طائرتين حربيتين إسرائيليتين اخترقتا جدار الصوت فوق بيروت، ما أدى إلى تحطيم نوافذ عدد من المباني. بعد أربعة عشر عاماً، توقفت المدافع في الشمال، ولكن الطائرات الحربية الإسرائيلية لم تكن بعيدة أبداً. في فندق «مايفلاور»، كنت أتشارك شقة صغيرة مع عدد من الزملاء الفرنسيين الشباب، أحدهم أصبح لاحقاً سفيراً بارعاً يتحدث العربية بطلاقة. كانت الشقة تقع على سطح المبنى، على بعد بضعة أمتار من مسار الطائرات التي كانت تهبط في مطار بيروت، والتي لم تكن تهتم في ذلك الوقت بتجنب إزعاج سكان الحمراء بضوضاء محركاتها المزعجة والمتكررة. في أغسطس 1992، كان المجتمع اللبناني لا يزال غير قادر على تصديق أن الحرب قد انتهت. كانت الدموع تملأ عيون سائق التاكسي عندما طلبت منه عبور «خط التماس» القديم للذهاب إلى الأشرفية. قال بصوت متقطع: «مرت اثنتا عشرة سنة منذ آخر مرة ذهبت إلى هناك...».

وفي النبطية، قالت أم لابنها: «انظر، وجود السيّاح الأجانب هو دليل على أن الحرب انتهت حقاً».

قال لي مرشدي: «السيد حسن لا يسكن أبداً في الطابق الأرضي ولا في الطابق الأخير، حتى لا يكون هدفاً لصاروخ مباشر». لقد ولت الأيام السعيدة التي كانت إسرائيل فيها لا تزال تتردد في استهداف المباني السكنية المليئة بالمدنيين بشكل عشوائي. قادتني رحلتي الطويلة بالسيارة في الضاحية إلى مبنى متواضع، حيث أوصلني المصعد مع مرشدي إلى الطابق الثالث. كنت أرغب في مقابلة السيد نصر الله، ليس فقط لإشباع فضولي كشخص يكتشف لبنان. السيد، الذي كان قد تولى قيادة حزب الله حديثاً، يجسّد جانباً كاملاً من الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي لـ«تيارات الإسلام السياسي»، التي كنت أحاول منذ سنوات إخراجها من القعر الذي يحاول خصومها العرب والغربيون إبقاءها فيه.

بعد ثلاثين دقيقة من الحديث الودّي، تأكدت فرضيّاتي، وبدأت قناعاتي الأولى تتشكل. حزب الله، كما وصفه لي السيد بلغة واضحة ودقيقة، ليس نتاجاً لتطرف مفاجئ أو لحال صوفية انتابت نخبه أو أتباعه. تأسيس حزب الله يأتي في سياق استمرارية التاريخ السياسي لمجتمع حيث انتهى الوجود الاستعماري فجأة ليأخذ شكلاً جديداً أكثر عنفاً، وهو عدوانية الصهيونية المجاورة، التي يقدم السيد نصر الله حججاً قوية لدحضها. المعجم الديني المستخدم في التعبئة لا يغيّر بشكل جذري مصطلحات هذا الوعي الهوياتي والسياسي وطموحاته.

في التعبير الشائع «الإسلام السياسي»، الذي يُستخدم غالباً لوصف التيارات الإسلامية، لا يمكن للمراقب أن يركز على المصطلح الأول متجاهلاً قوة المصطلح الثاني. الإسلام يرسّخ العمل السياسي في أعماق وجدان جزء كبير من المجتمع اللبناني الذي يشارك في المقاومة المسلحة، والتي كان السيد نصر الله مقتنعاً بأنها ستكون طويلة ومؤلمة، ولكنها حتماً ستكون منتصرة في يوم من الأيام.

* باحث فرنسي

نجمة صبحنا القريب



الرجل الملثّم بالنبوءة... والمعمَّم بالنهار

كيف عرفوا «السيد» وسمعوا اسمه أول مرة؟ كيف لمحوا وجهه وعينيه ليألفوا قسماته التي سترافقهم وترافق أولادهم وأحفادهم حتى «تخوم صاحب الزمان»، يستذكرون حكاياتهم معه، وما سمعوه من الناس البسطاء والفلاحين ونساء القرى والشعراء عن زرعه فيهم، يثبت الجبال في مكانها، ويصل البيوت العالية في القرى العاملية بالحمام الزاجل، وتسقط صوره فوق الخواتم في مسجد بسيط في الضاحية، فيرى الناس وجهه مثل أولئك الأولياء في الحكاية، وتختلط دماء ابنه هادي بورق الشجر المتساقط فوق القرية، كما الزهور الصفراء التي تسقط فوق ماكوندو في رواية ماركيز. أحبّهم وأحبوه، كبروا معه، علّمهم الحلم، بل علّمهم السحر، علّمهم ما يفعله ماركيز نفسه في كائناته التي ترتفع فوق الأرض وتطير، أنهم هم أيضاً صواعق تنزل على الغزاة، وأنهم سيحوّلون دبابات الميركافا إلى خردة تزرع فيها نساء الجنوب بخوراً لمريم، وأنّها «أوهن من بيت العنكبوت»، وأن ينتزعوا أرضهم بالقوة من بين أسنانها مرة أولى، ومرة أخرى في يوم الثأر القادم لا محالة، لدمهم ودمه، لأبنائهم المقتولين وابنه، لبيوتهم المهدومة وبيته. حكايات ثلاث عن الرجل الذي أخذنا إلى الضوء، الملثم بالنبوءة والمعمّم بالنهار

محمد ناصر الدين



بيّاع الخواتم

(الشياح، 1990، جواد يروي)

(يا بياع الخواتم بالموسم اللي جايي/جبلي معك شي خاتم)

كنا صغاراً نلهو بشقاوتنا في الواحة الواسعة لجامع «الإمام الحسين» في الشياح أكثر ممّا نصلّي في محرابه. كان كلّ شيء يبدو مخمليّاً في ذلك الزمان: إمام المسجد الذي يقول المؤمنون إنه صائم الدهر يخطب في المؤمنين في عداوة السيجارة (شاربها حمار) والطبيب (لا شافي إلا الله)، والحاج «أبو محسن» خادم المسجد يطاردنا حين نشطح بخطواتنا فوق القبور أثناء لعبة المطاردة التي كنّا نقسم أنفسنا فيها بين أصحاب الجنة وأصحاب النّار، ورجلان اثنان يريد كلاهما أن يؤذن هو بالإقامة قبل الصلاة: يبدأ «علي نعيم» بترخيم صوته ليدخل «أبو خليل» عليه بنشازه. يبتسم الإمام ويشعر أنه حقّاً على منهج الرافضة قد جمع بين الصلاتين.

عندها ظهر «بياع الخواتم» كأنه نزل من السماء في ليلة القدر، رجُلٌ بلحية غزا الشيب نصفها، يعرض بضاعته وأكياسه التي تخشخش عند خروج المصلّين، على درج المصطبة المحاذي لخزانة الأحذية. يشير إليّ «باسم» وأنا أراقبه عن كثب: «لا تلهينّك حجارة خواتمه الكريمة التي سلبت الألباب بين العقيق الأحمر القادم من وديان حضرموت والفيروز الممسح بمآذن شيراز الزرق عن ذلك الكيس الورقي تحت إبطه». كان البائع بالفعل يخفي سرّاً في الكيس لا يريد أن يكشفه أمام أعين الناس جميعاً، على طريقة أهل الباطن الضاربة في التاريخ. أعددنا خطّتنا بمهارة: أساومه على سعر الخاتم الأحمر وأغيظه، فيسحبُ «باسم» الكيس من تحت إبطه. عندها حدث ما لم يكن في الحسبان: لم تكن ليد الولد خفّة النشالين، فتمزّق ورق الكيس وسقط كل ما فيه فوق الخواتم: صوَر فوتوغرافية كثيرة لرجل واحدٍ كانت في وجهه مهابة الأنبياء، في صورة يبسط يديه بالقنوت، وفي الثانية يمسك بالمايكروفون في موكب مهيب، وفي واحدة أخرى يمشي في سهل والبارودة فوق كتفه، والبارودة واثقة كأنّ حمامة تحطّ عليها. وقف بائع الخواتم مذهولاً أمام انكشاف سرّه، كان لا يريد لهوية صاحب الوجه أن تنكشف قبل أوانها. تردّد في مطاردتنا بين قبور الجبانة، والتقط الصور المبعثرة فوق خواتمه واختفى تحت أزيز الرصاص في أزقة الشياح التي كانت تشهد معارك طاحنة بين «الإخوة» في حينها. وجه الرجل في الفيلم الفوتوغرافي بدا كأن ساحراً قد نقشه إلى الأبد في قلب كل من رآه يتساقط من الكيس، بنظارته السميكة وعينيه وما فيهما من سحر الثوار والشهداء. قال العجوز الأعمى عند باب المسجد بحكمته السماوية: طوبى لمن رأى وجهه «الحسن»، ستشربون من كأسه الأوفى فتفرحون بطعنته في فيروز البحر وتبكون لعقيق الدم فوق نحر ابنه ونحره.

ورق أيلول الأصفر

(عربصاليم، 1997- سوسن تروي)

(ورقو الأصفر شهر أيلول.. تحت الشبابيك ذكّرني وورقو دهب مشغول.. ذكّرني فيك).

أجلس على مصطبة الدار في بيتنا القائم على تلّة أشبه بالصومعة في طرف عربصاليم الجنوبي، وأرقب بيت «عزيزة» المطليّ بالأخضر على التلّة الشمالية المقابلة. كنت أحياناً ألمحها كنقطة بعيدة في آخر الأفق المفتوح، ولا بد من أنّها كانت تراني. أبتسم وأظن أنها تبادلني الابتسامة هي الأخرى، كأنّ في قلبينا حمامة زاجلة تعبر ذهاباً وإياباً من أول القرية لآخرها. أنتظر «مصطفى» ليعود من محلّ الحلوى الذي افتتحه بميراثه البسيط من أبويه اللذين قضيا نحبهما حين «تدهورت» فيهما البوسطة التي تقلّ الزوّار اللبنانيين إلى كربلاء المقدسة. تأخذني غفوة صغيرة، فأرى وجه أمي التي أرداها قناص «الكتائب» في ذلك النهار البعيد والمغبّش في ذاكرتي في نيسان 1975. كنا نقطع المسافة عند ساحة البريد بين بيتنا في عين الرمانة وبيت جدي في الشياح في اليوم الأول من الحرب. أبي يمسكني من يدي وأمي تمسك بأيدي إخوتي الاثنين، ثم تفلتهما لتسوي منديلها الأبيض الذي حرّكه هواء الربيع قليلاً إلى الخلف. حين سمعنا الطلقة الأولى تلاها رشق كثيف: احتميت وأبي بالجدار وأشرنا للصغيرين أن يلحقا بنا، كانت نقطة حمراء تتمدد فوق المنديل الأبيض وتركنا أمي مضرّجة بدمائها وعبرنا إلى الجانب الآخر. سحب المقاتلون جثتها ونقلوها إلى الجبانة في اليوم التالي. قال الناس إن جدتي في المساء أتت تحفر القبر بأظافرها لتخرجها منه، لولا أن نهرها جدي قائلاً: «استهدي بالله يا حجّة».

تدوّي طلقة ثانية أسمعها الآن بعد أكثر من عشرين عاماً فوق المصطبة، فيشتبه الأمر عليّ بين المنام والصحو: أنظر إلى «الجبل الرفيع» قبالتي فأرى أشباحاً ثلاثة بأم العين تطاردهم طيارة الهيليكوبتر، ثم يتصاعد الهدير، فتختلط أصوات الرصاص بالقذائف النازلة من الحوامة، وأرى في ما أرى ورق السنديان اليابس ينزل من السماء فوق وجهي. كانت الشظايا المتطايرة من صخور الجبل تغمر القرية بيتاً بيتاً كما غمر رصاص القنّاص طفولتي كلها. نظرت إلى بيت «عزيزة» المقابل فرأيت شهباً أرجوانياً طارت من بعده حمامة في الأفق وتناثر ريشها. دخل مصطفى الدار في تلك اللحظة وأخبرني أن الضابط «جواد عازار» قد استشهد بالقصف الإسرائيلي عند حاجز الجيش في الطرف الشمالي للقرية، إضافة إلى امرأة مجهولة الهوية. عرفت أنها «عزيزة» على الفور قبل أن يعلن الراديو عن اسمها في المساء، إضافة إلى أسماء الشهداء الثلاثة وقد صرعتهم الهليكوبتر: هيثم مغنية، علي كوثراني، وهادي نصر الله. قصة السيد وابنه تعرفونها أكثر منّي، لكني صرت أرى أمي في عينيه تقوم من دمها كلما أطلّ على الشاشة ليخطب بالناس، وأرى «عزيزة» تلوّح لي من بعيد، وفي صوته هديل الحمام الزاجل وخشخشة ورق أيلول المنهمر.

جبل الريحان يغادر موقعه

(عربصاليم 2014، «شمس» يروي)

(من ذا هو الرجل الملثم بالنبوءة/ والمعمّم بالنهار؟)

أضع طاولتي وأوراقي على الشرفة المقابلة لجبل الريحان، ونهر الزهراني يسري في الأسفل: أبدأ أولى قصائدي في ذلك الزمن السحيق بطفل أكتب له: «عارياً كان يعدو على سترة الأرض/ والأرض تعلو على غارب الماء/ والماء يطفو على صهوة الدم/ والدم يطفو على بقعة في الشتاء*». وأكتب القصيدة الأخيرة قبل موتي بقليل، قبل الحرب الأخيرة بقليل، أخاطب فيها طفلاً يقف هو الآخر بين أترابه: «لعلّ للريح شغفاً/ لعلّ فيها روح من تباعدوا/ وأوغلوا/ رأيتها تدور حول منزلي/ كقطة سوداء/ تقول للأشجار عانقيني/ أنام ليلة واحدةً وأرحلُ/ تقول للصغار هيئوا أريكة ومقعداً/ تقول هيئوا قبراً صغيراً لي/ فإنني أبيتُ ليلة وأرحلُ*».

كنتُ أصدق الأطفال والمجانين فقط، هم وحدهم مسافرو هذا العالم المكبّل. أكتبُ قصيدتي في عصر ذلك النهار الهادئ ولا حرب تلوح في الأفق: أعوام ستة مضت على الحرب الأخيرة، وها أنا الآن أفكّر في أحوال قيس و«ما حيّر العقل حتى عرّاه الجنون/ أن ليلى التي متّ في حبها ألف عام/تخون»، حين أطل الطفل «حسن» من بوابة الدار لابساً بدلة عسكرية مرقّطة وحاملاً بندقية كلاشينكوف بلاستيكية، وواضعاً صورة «السيد» على جيب البدلة. أردت أن أختبر فطرة الطفل، وأن ألمس بحيلة بسيطة ما زرعه صاحب الصورة في قلوب محبّيه، أترى يكون هذا الزرع من الأيديولوجيا البحتة كما يقول المغرضون، أو شيئاً أصيلاً مثل رمّان الجبل وغيمه والقمر المطل من فوق صخوره في القصائد. أشرت إلى الولد أن يقترب، ثم همست في أذُنه: «هل تعلم يا حسن أنّ الجيش الإسرائيلي سيأتي غداً ويفكّ الجبل بصخوره وأحجاره ثم ينقله إلى مكان آخَر خلف الحدود؟ جبل الريحان سيغادر موقعه». نظر الولد إليّ مشدوهاً بعينيه الذكيتين ثم اختفى خلف سياج الحديقة المجاورة. غرقت بعدها في أوراقي بين ليلى وقيس لأسمع نشيجاً يتصاعد شيئاً فشيئاً ويختلط بصوت النهر الطالع من وادي الزهراني: كان الصوت لا يشبه بكاء الصغار في شيء، كان الصوت حديقة تبكي. نحّيت أوراقي جانباً واقتربت من السياج: كان يضع رأسه بين كتفيه قرب وردة «المستحية» التي زرعتها جدته ويسقيها بدمعه، «كيف بيفكوا الجبل ونحنا منرضى؟».

ها أنا الآن أقف أمامه مشدوهاً: ناديته واحتضنته كأني أحضن الجبل والنهر معاً: «يا حسن، يا أبو علي يا حبيبي، كانت مزحة فقط، لن يفكّ الجبل أحد، انظر إليه ها هو في مكانه». انفرجت أساريره قليلاً ثم ردّ لي الصاع صاعين: «اسمع. إن لم تكن تمزح رح قوّص عليهم ببارودتي ودمرهم متل ما دمّر السيد البارجة». كان ذلك زماناً مخمليّاً لا يشبه اليوم في شيء، ثم نزلت من بعدها أطنان القنابل الثمانين على بطله. صار «حسن» رجلاً فيه الكثير من بأس أبيه، زارني عند قبري. أردت أن أعيد اللعبة معه ثانية، فقلتُ:

«كُنّا ننتظر المهديَّ طويلاً /حتّى جاءْ/ لكنَّ الأسماءْ/ خَدَعتنا في بعض معانيها/قالَ الناسْ: المهديُّ هو العبّاسْ/ ونَظَرْنا:/ كانَ العبّاسْ/ كنبيّ رسَمَتْهُ الصورهْ/ جذّاباً كالأسطورة/ وطويلاً/ أطولَ من خطّ الأحلامْ/ وجميلاً/ أجملَ من نهدينِ على صدرِ الإسلامْ/ ومشى/ فمشينا/ خلفَ خطاهُ/ كما يَتْبَعُ نهرٌ مجراهُ/ كنّا فقراءَ وتَوّابينَ/ وأخلاطاً من زنجٍ وشعوبٍ مغلوبة/ لكنَّ الشعراءَ/ وكانوا أوّلَ من آمَنَ بالأعجوبة/ وَجَدوا في/ منتصف الصحراءْ/ أمراً ما/ ملتبساً بين النارِ/ وبين الماءْ/ بين المُعجزة الكُبرى والأكذوبة فتواروا خلفَ مدامعهِمْ/ وانتظروا/ أن يخرج من سردابٍ آخر مَهْدِيٌّ آخرْ*».

وضع «حسن» خدّه فوق الرخامة، كأنما ينصت إلى كلماتي ثم همس لي: «اسمع. ربما كما تقول أيها الشاعر مات مهدي هذا الزمان، لكني أعدك والبارودة في يدي، جبل الريحان لن يغادر موقعه».

القصائد للشاعر الجنوبي الراحل محمد علي شمس الدين.

العشرةُ الأخيرةُ من أيلول

طراد حمادة

سماءُ
تعبرُ المجرّاتُ مدارَ السّماءِ
وتنحني
لأنّ الأرضَ وحدَها
تنزفُ دمًا
اسقطي أيّتُها النّجومُ
لتنطفئَ البحارُ
ويهجرَ الطّيرُ الفضاء

2

هذا فصلٌ للحزنِ
الأرضُ مأتمٌ
والهواءُ صُراخٌ

3

كانَ الوقتُ عصرًا
حتّى كأنّ النّهارَ
يُلقي على الشّمسِ
سلامَ الوداع

4

يلزمُ عشرةَ أيامٍ
منَ السّيرِ في الطّريقِ إلى القدسِ
لكنْ في أسرعِ من هذا الميقاتِ
يبلُغُها الشُّهداءُ

5

في حضرةِ مَن يُمكنُ أن ينحنيَ هذا العالمُ ؟

6

جبلٌ / فضاءُ
يُحدّثُ البحرُ عن أشواقِهِ
الجبلُ العامليُّ المُضاءُ
يتنفّسُ من رئةِ الماءِ ..
والاراوحُ ماءُ

7

بعدَ أنْ غابَ عنّا وارتحل
عرفتُ أشياءَ لم أكنْ أعرفُها من قبلُ
أنّهُ مثلُ نورٍ يُضيءُ
ويجعلُ الأشجارَ تُثمرُ

وأنّهُ مثلُ نسيمِ الصّباحِ
يلمسُ تيجانَ الوردةِ
ويفوحُ الطّيبُ

أسألُ
لماذا كلّما كانَ يخطبُ
يكونُ الوليُّ القريبُ

تُحبّهُ النّاسُ
والأشياءُ
والأفكارُ
ليسَ هذا كلُّ ما أعرفهُ
إنّما قبسٌ من نورِهِ
تذكارُ

سيّدنا الذي تناثر في الكون

علي زين

«أما نحن، فهذا لحمنا الذي فُرِيَ اليوم، وهذا دمنا الذي سُفِكَ اليوم، وهذا أخونا الذي قُتِل اليوم. ونحن لا نسكت على دمٍ يُسفَك، ولا على عزيزٍ لنا يُقتَل، والعالم كله يعرف ذلك».

هكذا ودّع سيّدنا، الشهيد الأممي، حسن نصر الله، الشهيد القائد الحاج غالب عوالي في عام 2004. وهكذا أيضاً، انفجر الوعي السياسي في فتى لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، دفعة واحدة، في ذلك اليوم.

مع التقدّم في العمر، وكثرة محادثتنا لأنفسنا - تلك المحادثات التي تزداد عمقاً مع مرور الزمن - يبدأ شيء ما بالظهور في أعماقنا: شعور غامض، أو قوة داخلية لا يمكن تجاهلها، تدفعنا للعودة إلى الوراء، نحو أولى لحظات الوعي. تلك اللحظات التي صاحبت إدراكنا الأولي لهذا الكون الغريب الذي نعيش فيه، وللوجود ذاته.

المحلل النفسي السويسري العظيم، كارل يونغ، كان له رأي حول هذا النوع من التجربة الإنسانية. بالنسبة إليه، الإنسان ليس مجرد مجموعة من الذكريات والتجارب الشخصية، بل هو أيضاً جزء من «اللاوعي الجمعي»، وهو مخزون مشترك من الرموز والأفكار والمفاهيم التي تتشاركها البشرية عبر التاريخ. وعندما نصل إلى لحظة الوعي الذاتي، فإننا لا نكتشف ذواتنا الفردية فحسب، بل ندخل في حوار داخلي مع هذا اللاوعي الجمعي.

منذ استشهاده، تلازمني فكرة محددة: أن للحياة أرواحاً مختارة بعناية، مجنّدة لإيقاظ المجموعات البشرية من حالة اللا-إدراك. هذه الفكرة، وإن بدت في ظاهرها رومانسية أو حتى ميثولوجية، إلا أنها تستند إلى فهم نفسي وفلسفي لطبيعة الوعي الإنساني والتحوّلات الجماعية.

من منظور علم النفس، يمكن النظر إلى هذه «الأرواح المختارة» باعتبارها رموزاً من ذلك اللاوعي الجمعي، أو محفزات نفسية (psychological triggers) تعمل على هزّ اليقظة الجمعية لدى المجتمعات التي تعاني من التخدير الذهني الناتج من القهر الاجتماعي أو السياسي. أما من الزاوية الفلسفية، فهي أقرب إلى التصوّر الأفلاطوني للنفس العاقلة أو «الفيلسوف-الملك»، عندما تكون بعض النفوس أكثر استعداداً لتحمّل أعباء التنوير وقيادته. هذه النفوس، وفقاً لهذا المنظور، ليست بالضرورة كاملة أو خارقة، ولكنها تمتلك قدرة استثنائية على إدراك الحقائق العليا وتحمّل مسؤولية قيادة المجتمع.

بهذا المعنى، لم يكن الشهيد القائد مجرد فرد في زمان ومكان، بل كان لحظة ارتقاء نفسي وفلسفي، انصهرت فيها ذاته في الجماعة. وتلك هي القوة الحقيقية لهذه الأرواح: إنها لا توقظ الوعي فقط، بل تعيد تشكيل تصوّرنا لما هو ممكن وما هو ضروري.

سيّدنا، الذي تناثر في الكون في ذلك اليوم الاستثنائي، السابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام 2024، ربما شعرنا جميعاً - أو على الأقل شعرتُ أنا - بأن هناك شيئاً قد تغيّر. وقد لا نستطيع وصفه بالكلمات، ولكنه كان أشبه بلمسة خفيفة على الروح، كأنها همسة من الزمن نفسه، تخبرنا أن الحياة لا تنتهي بالموت.

وأقول لنفسي الآن: لم يكن ممكناً لمثله أن يرحل بهدوء. وهكذا كان رحيله: اهتزّت له الأرض، ولشدّة حبّها له، احتضنته في أعماقها.

عندما نستشهد ننتصر





نجمة صبحنا القريب

في كل مرّة تضيق فيها الخيارات أمام العدو، يخرج بالحلّ الوحيد الذي يرى فيه خلاصه: التخلص من قادة المقاومة ورموزها بالقتل. الحلّ الذي يمثّل بالنسبة إلى قادة المقاومة الحلم الأسمى ومكافأة نهاية الخدمة، ويضخّ دماءً جديدة في شرايين المقاومة ويلهب حماسة أبنائها للثأر والانتقام، ويقرّب إسرائيل من النهاية المحتومة التي تخشاها: «لا زوال لمشكلات الاحتلال إلا بزوال الاحتلال نفسه!». هكذا، تكسّرت قارورة الطيب في الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) 2024، ليفوح أريجها ويغطي الأرض، ونسفت إسرائيل جهود عقود من التشويه والتزييف لإزاحة السيد حسن نصر الله من مكانته كأيقونة للثوّار ضد الظلم في كل مكان. وهكذا، انتقلنا من مرحلة التوسل لأصدقائنا من المبدعين العرب بأن يتجنبوا ذكر اسمه في مراسلاتهم معنا على تطبيقات المحادثة ووسائل التواصل الاجتماعي، لئلا يمسّهم في بلادهم سوء أو أذى، إلى مرحلة استقبال ما يرسله إلينا بعضهم من صور التقطوها بأنفسهم للوحاتٍ رُفِعَت في ساحات وميادين عواصمهم يزيّنها وجه الحبيب الذي كان وسيبقى شمساً لا يحجب ضياءها القتل ولا الحملات الإعلامية المغرضة. على أبواب تشييع سيد المقاومة، ننشر رسائل خطّها له مبدعون عرب من جنسيات مختلفة، فماذا قال الشعراء والأدباء العرب لـ «سيد الرجال»؟

إعداد وتقديم **مهدي زلزلي**

رسائل من مبدعين عرب: يا نـاصر المظلومين

زرعتَ فينا الأمل ورحلت

رشا فرحات - روائية فلسطينية من غزة

كنت رمزاً للثبات والصمود في وجه الظلم، والحقّ في مواجهة الطغيان. في يوم وداعك، نعيش لحظات من الحزن العميق، إلا أنّ مشاعل الحق التي أشعلتها في قلب الأمة تظل مضيئة في دروبنا، تُرشدنا في مواجهة التحديات. كنت واحداً من أعظم القادة الذين وقّعوا بدمائهم على التاريخ. موقفك الثابت في دعم غزة وشعبها كان مصدر إلهام للجميع. لم تتردّد لحظة في تقديم كل أشكال الدعم لأبناء الشعب الفلسطيني، سواء على مستوى كلماتك التي كانت تهز كيان الاحتلال أو عبر الدعم المادي واللوجستي الذي قدمته لحركات المقاومة الفلسطينية. على مرّ السنوات كنت الصوت المدافع عن قضيتنا، الحريص على وحدة المواقف والمصير، والمبادر دائماً إلى تقديم النصرة لغزة في وقت انشغل فيه الجميع بمصالحهم.

لن ننسى وقفتك المشرّفة أثناء العدوان الإسرائيلي على غزة، إذ كانت كلماتك الحاسمة ومواقفك الثابتة تبعث الأمل في القلوب وتؤكد أنّ الحق لن يضيع ما دام هناك رجال لا يتوانون عن دفع ثمن الحقيقة. في الوقت الذي كانت فيه بعض الأنظمة تتواطأ، كنت حاضراً في كل المعارك، قائلاً بوضوح: «غزة لن تكون وحدها»، وكان صوتك يصدح في قلوب كل الأحرار على امتداد الأرض العربية والإسلامية.

فقدانك اليوم خسارة عظيمة للأمة، فمثلك لا يعوَّض، لأنك كنت البطل الذي زرع فينا الأمل في زمن اليأس، وأكّد لنا أنّ فلسطين حاضرة في قلب كل مقاوم، وإن غاب جسده عن المشهد.

رحمك الله، سيظل اسمك خالداً في صفحات التاريخ، وستظل مواقفك الشجاعة، وأفعالك النبيلة، أوسمة على صدورنا نفاخر بها الدنيا، ونحن نذكرك في كل وقت وحين.

أيقونة الأمة وعنوان الشموخ

أحمد بوداود - إعلامي وروائي جزائري

السلام عليك يا سيد الرجال وصفوة الأبطال وعترة من بيت الآل، من الجزائر أرض الشهداء، من ابن مجاهد ابن شهيد سليل الثوار وفرع من الأحرار، يؤمن يقيناً أن الناس موتى والشهداء أحياء، وأنك يا سيدي عنوان الحياة وقبس من نور جدّك الحسين أُلقيَ في صدور الأحرار الثائرين المنافحين عن عزّة الأمة وكرامتها، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.

لم تمت يا سيدي، إنما ارتقيت في مدارج السالكين لتعيش إلى الأبد في روح كل حرٍّ شريف، أنت اليوم شعلة لكل جهاد ونضال ضدّ الظلم والطغيان، ونبع كرامة وإباء يستسقى منه إكسير البطولة والرجولة وينار به درب التحرر وكسر قيود الجبروت والطغيان.

أنت يا سيد شهداء طريق القدس عنوان للشموخ وقهر الأعداء، في زمن جبن فيه الأمراء والزعماء، وتواطأ فيه الخبثاء، فقدّر الله وما كان شاء، فكنت أيقونة للأمة وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ستبقى حياً في أنفسنا وقلوبنا ما بقي الحسين حياً، والخائنون إلى زوال، فالسلام عليك يا نصر الله، طبت حياً وطبت ميتاً، إن الرجال الذين نهلوا من فيض عزمك مستمرون جيلاً بعد جيل إلى أن يأتي وعد الله فيُرفع اسمُك عند أبواب المسجد الأقصى.

احمل رسائلنا وكلماتنا والأسماء

مضر الآلوسي - شاعر عراقي

أعلم أنك من السابقين إلى ربك لأني أعلم أن الله لن يخلفك وعده، ولن يرد دعاءك، ولأنّي أصدق كل كلمة قلتها حتى وأنت تبشر نفسك بالشهادة وتطلب منا ألا تكون شهادتك نهاية المقاومة، بل هي الطريق إلى الله وأنت من يصل قبلنا ونحن من ننتظر ولن نبدل تبديلاً، وعند الله يكون اللقاء، وأعلم أنك ستحمل إليه ملايين الرسائل والكلمات والأسماء وقبضة من تراب الوطن الممتزج بدماء الأحرار وشيءٍ من البارود وثبات المقاومين وأدعية الأمهات وبكاء الأطفال وجرائم الظالمين وسكوت الجبناء وخيانة الخائنين، وربما تمنيت لو أنك تحملني معك شاهداً على كل هذا، أعلم أيضاً أنّ جناحيك اللذين كانا كفتي ميزان سيكونان محملين بملايين الكلمات وأنت تحلق بهما نحو السماء، لكن لا بأس أيها الطائر الطاهر أن تحمل معك رسالة ممن يصدق يقيناً بأنك كما قلت: إنك لن تهزم وأنك ستنتصر أو...

وإن وقع الفعل بعد (أو) يكون منتصباً ومنتصراً يفيد الغاية لا التخيير والعطف، هل يحتاج العرب فهم هذا الدرس؟

هيبة الحضور والغياب

نور الرواشدة - شاعرة ومسرحيّة أردنية

لم أرَ في حياتي حدثاً يضاهي حضوركَ، حضوركَ في الحضور أو حضوركَ في الغياب، هيبة بحدّ ذاتها في كلتا الحالتين. لم أمرّ باسمٍ يتشكّلُ بالذاكرةِ كما لو أنّه موروث يتعلّق بالبطولةِ والرجولة كما اسمكَ. ولم أشهد وجهاً لحظة يُطلّ، تطلّ معه مساحة شاسعة من الأمان، تليقُ بهِ وبمن أحبَّه وآمنَ بفِكره ونهجه المقاوم، وفي ذات الوقت تطلُّ كوابيس مُفزعة جداً تليقُ بمحبّي الذلّ والهوان. وكما لم أسمع صوتاً يأتي متشبّعاً بكلِّ مفاهيم اليقينِ والسلامِ والخيرِ كصوتِك.

حضوركَ حدثٌ مرتبطٌ بأذهاننا منذ أن كنّا أطفالاً، منذ أن كانت أمّي تنادي بصوتٍ عالٍ: «السيد طلع، السيد ع التلفزيون»، لتنبّه والدي، فيترك ما في يديه ويحضر لمشاهدة السيّد. كانت جملة؛ «السّيد طلع» بالنسبة إلينا كأطفال حينها تعني: أنَّ البطل الذي يخوض نيابةً عنّا معاركنا كلّها، التي نعرفها ولا نعرفها وينتصر، يريد أن يقول لنا شيئاً مهمّاً. بعد كلِّ مرّة (يطلع فيها السيد) كنت أسأل أبي: «يابه لو مات السّيد بتوقف السيارات وبتنطفي الكهرباء واحنا بنتجمّد بمكاننا ما بنقدر نتحرك صح؟». لا أذكر إجابات والدي حينها عن سؤالي المتكرر، ولكني لم أنسَ هذا السؤال إلى يومي هذا. سؤال طفولي بحت، لطفلة أثّثت ذاكرتها بتفاصيل بحتة، عن بطل لن يكرّره التاريخ... بطل كان يجب أن يقضي شهيداً ليظلّ في سياق التاريخ.

فليس منطقياً ألّا تكونَ شهيداً يا سيّدي، وألّا تكون حيث شئتَ، فوالله لا يليق بكَ إلّا ما أنتَ عليه، رحمك الله يا شهيد الأمّة وشهيد القدس وطريقها، طريق الأحرار. وسنظلُّ يا سيدي ما حيينا مع كلّ دقّة عروبة نضمرُ لكَ الحنين ونعلنُ لك الوفاء.

أيها السقراط الهاشمي

عادل الصويري - شاعر عراقي

أُراقبُ الوقتَ وهو يضعُ يدَهُ على خاصرتِه. يعرفُ أنّكَ نَجَوْتَ مِنَ الجدل، وكتبتَ اسمَكَ في الأعالي، وتركتَ بسمتَكَ الهادئةَ تسخرُ مِنَ القمعِ الفيسبوكيّ البارد، ومن ثرثرةِ الوحيدين أمامَ مراياهم، إذ لم يعد في وسعِهِمْ إلا أن يتفرَّجوا على ذواتهم الملتبسةِ عبر مرآةٍ أكثرَ التباساً، وقد كشفَ غيابُكَ الالتباسين معاً.

تصعدُ الآنَ مِنَ الآيةِ 214 من سورةِ البقرة، وسط تصفيق المجرّات والملائكة، بينما تلتفتُ قليلاً إلى الجنوب وَتُتَمتِم: «ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون».

أرهقتني كثيراً أيها السقراط الهاشميُّ. فأنت مثلهُ لم تترك مكانك حتى حين قالوا فيكَ ما قالوا. فضّلتَ أن تصعدَ وأنتَ فيهم، وتركتهم يتنقّلونَ بين خرزِ المسبحةِ الملتظمةِ بالخسارات.

كيف لم ينتبهوا إلى حكمتِكَ، بينما يقرؤون الآن ما قاله سقراط عن الحكمة: «إنّها في مقدورِ البشر، وإلى هذا الحد فأنا حكيم».

يقولُ الزمنُ إنه ينتظرُ عودتَكَ مِنَ الشموسِ المؤبّدة، وحينها يتورَّدُ الشحوبُ على تجاعيدِ الحياة، وتُضاءُ شمعدانات اليقينات التي ارتبكَ ضوؤها قليلاً. وإنَّهُ يتوقُ لرؤيتِكَ في مداولاتِ الخلودِ مُرَتِّباً الكربلاءاتِ الأرضيّةَ بجرحٍ مفتوحٍ على سورةِ الفجر.

هذا الطريق سنكمله

محمد الكامل بن زيد - قاصّ جزائري

في هذا العالم، في هذا الزمن، تقف على أرض وعرة الدروب. حالكة المسالك. لا شيء يثنيك عن السير قدماً نحو أفق رحب واسع. تجذبك الشمس المشرقة جذباً شديداً لا مناص منه. تمضي حاملاً في كفيك حجرة ليست ككل الحجارة وبندقية ليست ككل البنادق، كأنك النسر الجارح الحالم المشبع بكلمات الرحمن ينحت الجبال الشامخة بضرباته فيدكها دكاً. يلهج لسان حالك ليل نهار: «هذا الطريق سنكمله ولو قُتِلنا جميعاً، ولو استُشهدنا جميعاً، ولو دمّرَت بيوتنا على رؤوسنا، لن نتخلى أبداً عن خيار المقاومة».

في ظاهرها، هذه الطريق، هذه الأرض قد تبدو للعيان أرض خراب، بور حمراء اللون تعصف بأنوائها رياح السموم كأنها أهوال قيامة. إلا أنك دون سواك ظللت ترى بكل عزم وعين ثاقبة باطنها، ملاذاً آخر لجنة الخلد.

تردّد في آن واحد، بكل ما أوتيت من صوت جهوري يمتد إلى أقصى الأمكنة، كلمتك الشهيرة «ما دمت مع الحق فأنا مع الله ومن كان مع الله كان الله معه».

حين عبرت إلى الملاذ الآخر... إلى جنة الخلد... ظنّ أهل العدم من المغضوب عليهم وابتسامتهم الخبيثة تعلو سحنات أوجههم العفنة أنهم انتهوا من أحلامك الزكية الطاهرة، ناسين أن من صلبك انتفضت نسور كاسرة تأبى أن تخلف الوعد، فحلّقت زرافات زرافات، حاملةً في كفيها حجارة ليست ككل الحجارة وبندقيات ليست ككل البنادق.. وكلمة السرّ بينها: «فداك يا حسن يا نصر الله».

أرى الصبح بابتسامتك

حسن الحاج عكلة ثجيل - شاعر عراقي

من العراق الحزين عليك والمفتخرِ بك حدّ الزهو، أكتب إليك يا سيدي، بعد التّحية والسّلام اللذَين يليقانِ بمثلك ويؤدّيانِ حقّكَ وإنْ بَعُدَ هذا على مثلي.

أُنبيكَ أنّنا بقدرِ حزننا وفاجعتنا على فقدك وصدمَتِنا برحيلك، يعترينا شعورٌ مفرطٌ بالافتخار والتباهي بخاتمة مسيرتك وتغمرنا الطُّمَأنينةُ والسّكينةُ اللّتانِ ما فارَقَتا مُحَيّاك مُذ رأيناك.

ويكبرُ نخيلُ العنفوان الذي غَرَستَهُ بأرواحنا، ويُورِقُ شجرُ الإباءِ الذي بَذَرْتَهُ بضمائرنا، كأنّهما سنديانُ جنوبك.

سيِّدي دعني أُخبِرْكَ أمراً أنت أعلَمُ بهِ منّي، ولكنّها لهفةُ المُحِبِّ للحديث مع الحبيب: لقدَ نشرَ نبأُ استشهادكَ الفرحَ حدّ الهستيريا لدى قوى الاستكبارِ العالمي وبثّ الشّماتة المُقَزِّزَةَ حدّ القرَفِ لدى أذنابها وماسحي أكتافها!

سيّدي يا حسسسسسسسسسسن...

آهٍ آه، اسمح لي هذه المرّة أنْ أُناديك بكُنْيَتِك لأنّني أَوَدُّ الحديث عن أمرٍ تليق به الكُنْيَةَ أكثرَ من الاسمِ

سيِّدي أبا هادي الشّهيد،

لقد ذَكَّرْتَنا كربلاءَ وجعلتَها ماثلةً أمامنا فهي لم تغبْ عنكَ أبداً.. ها هو العالم رآكَ تقف وحيداً أمام الجموع، وها هو العالم رآكَ تُقتَلُ دونَ قضيّتك ولا تكتفي بالكلام والشّعارات الزّائفة. لقد احتوشوكَ بما صنعوا من أسلحةٍ وقنابلَ وبالغوا بها كمّاً وكيفاً كما فعلوا مع جدِّكَ الحسين.

«وإنّ الأُلى بالطفِّ مِنْ آلِ هاشم، تّأَسّوا فَسَنُّوا للكرامِ التّأسّيا»، لطالما هيمنَ عليّ هذا البيت الشّعري وأنا أراك مُتَأسّياً بالصّالحين من آبائك مُقتدياً بسُنَنِهِمْ لم تتركْ غزّةَ تواجهُ مصيرها وحدها وكانَ بإمكانكَ ذلك، بل وأجدى لك ولمصالحك لو لم تستحضر العبّاسَ حينَ لم يتركِ الحسين وكان بإمكانه وأجدى له لو كان هاجسهُ وهاجسكَ المصالح!

سيِّدي لقد تعلّمنا منكَ أنّ الدّعةَ والاستسلام لا يُحرّرانِ أرضاً ولا يصونانِ شرفاً ولا يُديمانِ عزّاً وكأنّكَ سمعتَ ووعيتَ ما قالهُ زيدُ الشهيد: «ما كَرِهَ قَومٌ حَرّ السُّيوفِ إلّا ذَلُّوا»، ولذلك ألفُ مصداقٍ ومصداقٍ يتجلّى بفتيانكَ وحَوارِيّيكَ وهُم يَأتَمّونَ بكَ شاهداً وشهيداً ويغذّونَ الخُطى بطريقٍ رَسَمْتَهُ بدمائكَ الشّريفةِ...

إنّ مُجرّدَ تَصَوُّرِ أنْ لا أراكَ ثانيةً ولا أسمعَ صوتَكَ هو كابوسٌ مرعب يكادُ يفتكُ بي. إنّني أرى اللّيلَ بعمامتك والصُّبحَ بابتسامتِك وأُسافر بالزّمن بعيداً بإطلالتكَ لأحُطّ رحلي بباب دارِ عليٍّ وفاطمة مُتنفساً عبقَ النّبوةِ والإمامَةِ من خلالكَ أنت. نعم أنت لا غيرك.

سيِّدي، لقد كنتَ رؤوماً بمحبيك رحيماً بهم ولكنّك قَسَوتَ بواحدة!

نعم سيِّدي لقد قَسوتَ على مُحبِّيكَ بفراقك.

سيِّدي، لا تقلقْ إنْ غَفَلْتُ عنوانكَ في رسالتي فهو أَعرَفُ من أنْ يُعَرّف، إنّهُ: «علّيِّيْن مع الشُّهداءِ والصِّدِّيقينَ وحسُنَ أُولئكَ رفيقاً، يا حسن، والسّلام»

ستصلي في القدس لا مراء

حسن سامي العبدالله - شاعر عراقي

سلامٌ عليك وأنت في عليائك، أيها الأسمى. سلامٌ على صوتك الهادر في الخالدين. سلامٌ على بسمتك في عليين. يا سيد المعادلات وسادن اللاءات وحارس البقاء بحضوره وغيابه، أكتب إليك من عالمنا اليتيم.

سيدي الأجل. نيف وثلاثون من حفظ الأمانة، وصون القيادة، وأداء الرسالة، علّمتنا فيها الحب والأسماء والإباء، نيف وثلاثون مضين وأنت باقٍ في الضمير وفي التاريخ والجغرافيا، ما زالت ترسم بريشتك الغيبية لوحات المجد وملامح القيام.

أيها الممتدّ منا وإلينا، لا الرسائل تتسع للامتناهية الفقد ولا اللغة توجز مجرات الفراغ التي نتوه بأبعادها، لكنّ أملاً بنصر الله وغلبة جنده وشيئاً من ملامحك النورانية التي تتأصل في مداركنا تهبنا السكينة والطمأنينة والسلام. السلام الذي اختطته فوّهات البنادق وهيهات الرجال، الرجال الذين أمّنتهم القرى الخضراء والماء والمدائن والتين والزيتون.

ولأننا نؤمن بأن الشهادة معراج وانطلاقة ووصول، فلا شك ولا ريب فيما اخترت وأردت ونلت. أيها الخالد في الجرح والملح والدمع والصلاة. عزاؤنا أن صوتك باقٍ ما بقي الليل والنهار يتردد صداه في كل زمان ومكان «حاضرون في كل ساح... لن نترك السلاح».

ما زالت عباءتك تظللنا بالحب والدفء وكأنها خيمة البلاد من القدس إلى بغداد ومن صنعاء إلى بيروت، يا صادق الوعد وحافظ العهد وقائد الجند على أبواب فلسطين التي تتنفّس شذاك، ستصلي في القدس لا مراء، وستمسح على رؤوس اليتامى وتعانق التائقين لأنك في الذين قال عنهم الله «أحياء عند ربهم يرزقون».

للآن تتوضأ القرى باسمك وتصلي عليك صلاة الحاضر! أيها الحاضر الموجود في دموع الأمهات وفي حكمة الشيوخ وعنفوان الشباب وبراءة الأطفال، بنادق بنيك تزغرد وأكفهم تصفع، ولاءاتهم ناجزة قائمة.. دام ظلك الوارف أيها الأمين العارف...

عصا كبريائك تلقف أفاعي خنوعهم

فراس متاني - شاعر عراقي

نصر الله، أيّها المتدلّي كعناقيد الفراديس لراحات الثائرين. أيُّها الموغلُ في حلَكِ الخنوع إباءً حسينيّاً. أيّها المحيلُ صباحاتنا دياجرَ يأنفُ الخسوفُ اكتناهَها. أيُّها الواثبُ على دكّةِ الرفض بيرقاً عبّاسيّاً وساعداً تنبض في نواشرِهِ دماءُ عليّ.

أيُّها الموهي أباطيلَ مناوئيك بنبرةِ صوتك التي ردمتْ هوّة التاريخ وتجلّتْ بهيهاتَ لا تُنعَتُ بأخرى. أيُّها المتماهي مع تخوم المستحيلات نصراً ممكناً في كلِّ آن. أيُّها النابض في صدر الصحاري قراحاً مستفاضاً صوب أهوائها القصيّة. أيُّها المارجُ التخلّي بالتجلّي حين أزمعت الرحيل من دارٍ واحدة إلى كلِّ دار.

أيُّها المؤثِرُ والمؤثَر عليه حين لبّى نداء شوقِهِ لعبّاس الموسوي، فآثر اللهُ أنْ يبذر في كلّ بيتٍ حسناً لا أدّعي أنّهُ أنت، بل أجزم،

أيُّها المتنامي سنابلَ أَنَفَةٍ وحميَّةٍ في جدب الضمائر حين شحّ الغمام.

كان لا بدَّ أن ترى وتُري: أن ترى من زَفَفْتهم بيديك الكريمتين قرابينَ عزٍّ ومشاعِلَ وفاءٍ لشريعة جدّك السمحاء، وأنْ تُريَ أحبابك قبل أعدائك أنَّ من أحسنَ اللهُ رصفَ سجاياه وصَنَعَهُ على عينه لا بُدَّ أن يؤتيه حُسْنَ خاتمةٍ رِدْفاً لمقامه الأسمى...

أيُّها النائي الأقرب إلى المُقلةِ من سُحّها المترقرقِ حرقةً على مثلك.. وهل لك من مِثل؟

أيُّها الجاعل البكاءَ فخراً وهذه وتريَّةٌ حسينيّةٌ أبحتَ مكنونَها بعد قرونٍ وقرون.. أيُّها المتسلّقُ سلالمَ الدُّعاءِ صحيفةً صحيفة. أيُّها المتدرِّعُ بما أوتي أسلافُهُ من طمأنينة. أيُّها المُلقي في ألسنةِ اللهبِ خليلاً خاطَ التوكُّلُ جلبابَهُ. أيُّها المُلقي عصا كبريائك تلقفُ أفاعيَ خنوعِهم ورزوحهم تحت ظلالِ المتغطرسين.

أيُّها المشتاقُ والمشتاق لَهُ حين التبس على فحول الصرف المعنيانِ، ولا أبرِّئُ ساحتَكَ من هذه التهمة الحصون، فقد اشتقتَ للحسين، وأذبتَ الخوافقَ شوقاً لمقولته الشريفة: «هيهاتَ مِنّا الذلّة».

كأن غيابك ليس سوى فكرة عابرة

ضياء الكيلاني - شاعر مصري

صباح السلام...

مساء السلام على روحِك الطاهرَة...

لأني لا أعرف الوقتَ كيف يقسِّمُه الله في الآخرة

فهل من صباح هناك؟ وهل من مساءْ؟

وهل يحملون النهارَ إليك...

إذا عنَّ شاي الصباح عليكَ؟

وحينَ تحنُّ إلى قهوةِ الليل هل يُحضرونَ لكَ الليلَ والساعةَ العاشرة؟

وهل يتركُ اليومُ أولَه هكذا... كي ترَى آخرَهْ؟

وبعدُ...

كأنَّ غيابَكَ ليسَ سوى فكرةٍ عابرَةْ،

تسللَ منها فأمسكته، وسلَّمتَه روحَكَ الطاهرَةْ

تعبتَ؟ ويا كم تعبتَ

وأنت تظلل أعمارنا، وترعى زهورك في الذاكرة

ولكننا كلّنا متعبون بهذا الغيابِ

كأنْ يدخلَ الليلُ في أيِّ وقتٍ ويجمع أقمارَهُ الساهرَةْ

وبعدُ...

اطمئنَّ

فأبناؤك المخلصون - على العهد - لا يقطعون السلاما،

يؤدُّونَ فرضَ الجهادِ كراماً كما ينبغي أن يكونوا كراما،

فلا الثأرُ ينسَونَهُ في زحامِ الخطوبِ

ولا يخذلونَ الحماما

سوى أنهم من سواد العيون، إلى ربهم ينسلونْ...

يتامى... ونسلُ اليتامى يتامى،

وبعدُ...

بوسعك - يا سيدي - أن تباهي بنا الأنبياءْ،

وأن تخبرَ اللهَ عن أهلك الطيبينْ،

يغالِبُهُم في الصباحِ الحنينُ، ويغلبُهم في المساءِ الحنينْ...

وعن هؤلاءِ وعن هؤلاءْ...

بوسعكَ أن تخبرَ اللهَ عما تشاءْ

عن القدسِ، عن فئةٍ حول أكنافِهِ صابرةْ،

وبعدُ...

القطارات أسرعُ من أن أعيدَ النظرْ...

وأسرع من عامل الوقتِ وهو يعلِّقُ في مُقلتيَّ الصوَرْ،

وأسرع من أن أعُدَّ رجالَ الجنوبِ وأرزَ الشمالْ،

فأين القطارُ الذي لا يفوتْ؟

قطارُ المواقفِ وهو يشقُّ الجبالْ

قطارُ النضالْ،

قطارُ الثباتِ على الحقِّ وهو يهُزُّ البيوتْ،

تفوتُ القطاراتُ أين الذي لا يفوت؟

ليدركَهُ مَن يشيخونَ قبلَ ركوبِ القطار،

وقبلَ اتخاذِ القرار،

وتُحصَى تجاعيدُ أفكارِهم في زوايا الكلامِ، فيخفونها بالسكوتِ...

وبعدُ...

فإنيَ لا أعرف الوقتَ كيف يقسِّمُه الله في الآخرة

ولكنني حين تغلبُني هذه الدمعة الشاعرَةْ...

تضيقُ المسافةُ ما بين لبنانَ والقاهرَة...

وتلمعُ عيني بما أنت أهلٌ له من سلام

وأغمضها...

فيرتلُ قلبي السلامَ على روحِكَ الطاهرَةْ

(رسم علاء مرعي)

ظِلّ السماء

عادل بشر - روائي وصحافي يمني

كانت الساعة التاسعة مساءً بتوقيت صنعاء، في 14 تموز (يوليو) 2006، عندما صدح صوتك في ختام خطاب قصير: «انظروا إليها تحترق وستغرق ومعها عشرات الجنود الإسرائيليين».

كانت تلك المرة الأولى التي تدمع فيها عيناي فرحاً وعزة وفخراً، وتندفع العَبرَات نحو السماء، ومشاهد احتراق «ساعر 5» الصهيونية يُضيء لُجَّة المتوسط، والمرة الأولى التي أتمنى لو أنني واحد من جنودكَ أو حتى حجر من أرض الجنوب يُرمى على المُحتل فيُحطم أسطورته الكاذبة.

«انظروا إليها تحترق»، 19 عاماً مضت وحتى هذه اللحظة، ما زال بدني يقشعر كلما أنصت إلى صوتك في ذاكرتي، تلك النبرة التي يستحيل على الذاكرة نسيانها.

«انظروا إليها تحترق»، إنه الوعد الصادق يا سيد الشهداء، وها قد أكرمنا الله لنرى هذا الوعد بنسخته اليمنية يتكرر في مضيق المندب والبحر الأحمر. ثُلة من شباب اليمن أغلقوا البحر في وجه عدو الأمة وبقوة الله ضربوا سفنه وتلك الداعمة له، فشاهدناها تحترق وأخرى تغرق والبقية تفر بعيداً... وهو ذات الوعد الصادق الذي أطلقه رفيق دربك السيد عبد الملك بدر الدين الحوثي بقوله «لن نترك فلسطين وقضيتها مهما كانت النتائج والتحديات».

أتُراك شاهدت ملايين المستوطنين يلوذون بملاجئهم تحت الأرض هرباً من «فلسطين 2» و «صماد 3» و «يافا»؟ أجزم أن ابتسامتك الجميلة علت سحنتك النيّرة وأنت في برزخك تسمع مسؤولي الاحتلال غاضبين يتوعدون بتدمير اليمن.

ثلاثون عاماً يا سيد العُظماء، كان صوتك وحضورك شاهداً على كل مرحلة من الصراع مع عدو الأمة. كنت يا أبا الهادي ناصر المظلومين، والمتحدث باسم المقهورين والثائرين، ولك في قلوب اليمنيين منزلة لن ينالها غيرك، فأنت أول من دافع عنهم وساندهم ضد عدوان أدوات أميركا و «إسرائيل». كنت الوحيد الذي يشبهنا، الوحيد الذي أشعرنا أن قضيتنا هي قضيته ونضالنا لا يختلف عن نضاله. كان صوتك يا سيد الاستثناء اليد التي تُربت على أكتافنا والنبض الخافق بين جنباتنا، فتبعث فينا الثقة والقوة والصمود.

سيدنا الأعز، ستظل حياً فينا وسيبقى نهجك النور الذي يُضيء الطريق إلى القدس، وسيأتي اليوم الذي ننفذ فيه وعدك ونهدم «بيت العنكبوت».

شهادات أخرى على موقعنا



نجمة صبحنا القريب

أحد أبرزِ وجوهِ «لاهوت التَّحرير» ومقاومة التوحش النيوليبرالي

جنوب العالم الأممي... إنّه شهيد المستضعَفين

رشيد وحتي

في سوءِ فهمٍ لدور الدين في السياسة، وفي نزع لمقولة «أفيون الشعوب» من سياقها في التاريخ وفي متنِ نصِّ ماركس؛ وفي تناسٍ لمقولته الشهيرة المجاورة للأولى «الدِّين تنهيدةُ المضطهَدين»، المجتزأتين معاً من كتابه «إسهامٌ في نقد فلسفة الحقِّ لدى هيغل» (1843)؛ ناصبتْ جلُّ الحركات والتنظيمات اليساريَّة في العالَم خلال المدِّ الاشتراكي العداءَ لكلِّ تمظهُر سياسيٍّ للدين، تارةً بدعوى العلمانيةً وطوراً بدعوى التفسير المادي للكون. لم يستطع تغييرَ هذه النظرة الحدِّيَّة والقطعية سوى بروز حركات تحررية في أميركا اللاتينية تمزج بين الفكر اليساري والدين الشعبي تحت مسمَّى لاهوت التحرير، الذي كان أبرز أعلامِه الشاعر والراهب الثائر إرنستو كاردِينال الذي أعطى إشعاعاً كونياً لنضالات ثوّار الجبهة الساندينية في نيكاراغوا إلى أن تسلّموا زمام الحكم، مثلما لم يتورّع عن انتقاد انحرافاتهم وسياساتهم اللاشعبيَّة عندما استتبَّ لهم الحُكم.

ولأنَّنا كمزيج لمدارس ومشارب سياسية عدة تجمعها مناهضة الإمبرياليَّة، لم نجد يوماً أي تنافُر بين قناعاتنا الأيديولوجيَّة والسياسيَّة المتنوعة وتأييدنا للمقاومة الإسلاميَّة في لبنان، كامتدادٍ لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية في مشروعها لتحرير كامل التراب الوطني اللبناني وإسناد الشعب الفلسطيني؛ مع ما يستتبع ذلك من إعجاب بقائدها التاريخي الذي تكادُ تتماهى معه وتتجسَّد فيه: شهيدنا الكبير السيد حسن نصر الله.

من هذه المنطلقات الراسخة، نحاول ها هنا، رسم صورة للرجل والقائد التاريخي كما وردت في بيانات وصحافة قوى اليسار الأممي غداة استشهاده.

يسار ينسلخ عن المركزية العنصرية للقارة العجوز

في اليونان، أدان الحزب الشيوعي المعارِض اغتيال «إسرائيل» لزعيم «حزب الله» السيد حسن نصر الله. وقال في بيان له إثرَ ذلك إنّ «دولة إسرائيل الإرهابية تشن، بمباركة ودعم من الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي، حرباً واسعة النطاق ضد شعوب الشرق الأوسط، مع عواقب لا يمكن التنبؤ بها على المنطقة بأكملها وعلى المستوى الدولي». وقال الحزب إن اغتيال نصر الله وزعيم «حماس» إسماعيل هنية في تموز (يوليو) الماضي، والتهديدات بشن هجوم بري على لبنان، وكذلك الإبادة الجماعية المستمرة في غزة، «تُظهر أنّ هناك خطة جارية لتكثيف الحرب والتدخلات الإمبريالية، التي يمتد تأثيرها إلى ما وراء حدود الشرق الأوسط». كما اتهم الحزب الحكومة المحافظة في اليونان بالتواطؤ في جرائم «إسرائيل» عبر تزويدها بالدعم السياسي والاقتصادي والعسكري.

أمَّا في إسبانيا، فقد أصدر الحزب الشيوعي بياناً في 28 أيلول (سبتمبر) 2024 عقب إضرابٍ استجابت له نسبة كبيرةٌ من النشطاء والأنصار، دعماً للمقاومة الفلسطينية، داعياً إلى تضامن عالمي لإدانة «إسرائيل» ومطالبة الحكومة الإسبانية بقطع العلاقات الديبلوماسية معها. كما شدّد الحزب على أن الاغتيالات الصهيونية، ومنها اغتيال السيد نصر الله، هي جزء من خطة «إسرائيلية» لتوسيع عمليات الإبادة الجماعية في المنطقة.

في التحليل، يبدو أنَّ بيان الحزب الشيوعي اليوناني، الحاد اللهجة والمستند إلى أدبيات ومقولات ماركسية صار اليسار العربي المُتَلَبْرِلُ يخجل من استعمالِها، يغرِف من تراثٍ سياسي تميزت به اليونان لعقود طويلة في القرن العشرين، عندما كانت حكوماتها الاشتراكية متحالفة مع القوى الراديكالية في «منظمة التحرير الفلسطينية»، بالدعم السياسي وحتى بالتسليح وحرية الحركة والنشاط على سائر التراب اليوناني.

أميركا اللاتينية: شهيد في حرب إمبريالية شاملة

في 28 أيلول (سبتمبر) 2024، أعرب الرئيس الفنزويلي نيكولاس مادورو خلال تجمع جماهيري عن تضامنه مع شعبَي لبنان وفلسطين، واصفاً حكومة نتنياهو والإدارة «الإسرائيلية» بأنهما تمارسان الإبادة الجماعية بتغطية من الولايات المتحدة الأميركية ودعمها. كما أدان اغتيال الأمين العام لـ «حزب الله»، السيد حسن نصر الله، الذي أفنى عقوداً من حياته سعياً إلى تحرّر لبنان وفلسطين من ربقة الإمبريالية الأميركية، وأعرب عن تضامنه مع عائلته وشعب لبنان. كما أشار إلى أن الهجوم الذي استهدف ضاحية بيروت الجنوبية تسبّب في مقتل مئات الأشخاص، متهماً المجتمع الدولي بالصمت.

> هدفهم إحداث فرقة في صفوف المقاومة عبر ترديد كذبة أنها «إسلامية» ولها أهداف أخرى غير تحرير فلسطين

وفي اليوم ذاته، أدان الرئيس الكوبي ميغيل دياز كانيل عملية الاغتيال، مشيراً إلى أنها تهدّد السلم والأمن الإقليميين والدوليين، وتشكّل نقطة تحول خطيرة في خوض الحروب الاستعمارية ضد الشعوب وقياداتِها التحررية. اعتبر دياز كانيل الهجوم جزءاً من العمليات «الإسرائيلية» المستمرة التي تستهدف المدنيين وتدمير البنية التحتية في لبنان بإيعاز من الولايات المتحدة.

الملاحَظ في البيانين الرسميين للبلدين قطبَيْ الرَّحى وقاطِرتي حركة التحرر في أميركا اللاتينية أنهما يضعان اغتيال حسن نصر الله والحرب الصهيو - إمبريالية على الشعبين الفلسطيني واللبناني ضمن سياقٍ شامل للتطاحن بين الشعوب المستضعَفة بقيادة حركات التحرر العالمية التي تقودها من جهة، وقوى النيوكولونيالية وربيبتها في المشرق العربي من جهة أخرى. تحاليل صارت تتعامى عنها الكثير من القوى المحسوبة عربياً على الحركة التقدمية، بعدما تقوقعت غالبيتها في همومِها القُطْرية أو تَطَيَّفَتْ أو باعت ذمتها لإغراءات المال الخليجي ودعم الاستخبارات الغربية.

فصل جديد في النضال الكبير من أجل الحرية

ربما كان موقف هذا التنظيم الماركسي ـ اللينيني، الصغير حجماً والمشِعِّ فكراً، من أمثل المواقف التحررية الأممية في توصيف الحرب الإمبريالية في شموليتها وبشاعتها، وفي إنصاف شهيد المستضعَفين حسن نصر الله طوال مساره السياسي وفي لحظة استشهاده، لذلك ارتأينا إيرادَ نصه كاملاً، من دون حذف ولا اختزال، مع الإشارة إلى أنه يستعمل عبارات وكلمات مشرقية/ إسلامية كما هي لدينا، مثل وصف حسن نصر الله بالسيد، وليست إقحاماً منا لها في ترجمة أصل البيان: «إن الحزب الشيوعي الكندي يدين هذا الاغتيال الجبان والإجرامي ويعرب عن تعازيه العميقة للشعب اللبناني وقوى المقاومة. إننا ندين سياسة الاغتيال، التي قدمها الإمبرياليون الأميركيون خصوصاً أوباما كأمر طبيعي جديد، حيث يُقتل المدنيون بطائرات من دون طيار وقنابل عالية الدقة باسم المثل العليا. فليحتفل أنصار الإبادة الجماعية الذين يسمون أنفسهم ديموقراطيين بمثل هذه الجرائم ضد الإنسانية، لأن الوقت قد حان لوقف التحدث بالنيابة عنا. إن شعوب العالم تقف كإنسانية واحدة لتجريد المجرمين من مناصبهم في السلطة والامتيازات التي تسمح لأشخاص مثل نتنياهو أن يفعلوا ما يفعله. لقد بذل الإمبرياليون الأميركيون وحلفاؤهم، بما في ذلك كندا، كل ما في وسعهم لإخفاء جوهر القضية على نطاق عالمي، أي نضال شعوب العالم ضد الإمبريالية، من أجل استقلالها، وحق جميع البلدان في المعاملة على قدم المساواة، وتقرير شؤونها الخاصة من دون تدخل أجنبي. اليوم، يبذل الإمبرياليون الأميركيون ووكالاتهم الاستخباراتية كل ما في وسعهم لتقويض قوى المقاومة ومنعها من تبني موقف صريح مناهض للإمبريالية، بل من التصالح مع القوى النيوليبرالية عبر إطلاق أسماء على قوى المقاومة والادعاء بأنه لا يمكن دعمها لأنها إسلامية أو إرهابية أو رجعية. ليس هذا هو الوقت المناسب للسماح لحركة المقاومة بالانقسام بسبب الحملة الدعائية الضخمة التي تقول إنّ المشكلات في غزة والضفة الغربية ولبنان والعالم هي بسببِ جمهورية إيران الإسلامية لأنها «أكبر دولة إرهابية على هذا الكوكب»، أو «حزب الله»، أو «حماس»، أو مقاومة أنصار الله في اليمن، أو أي قوة أخرى تقاتل ضد الإمبريالية الأميركية وحلفائها. المتواطئين. هدفهم الوحيد هو إحداث الفرقة في صفوف المقاومة عبر ترديد كذبة أنها «إسلامية» ولها أهداف أخرى غير تحرير فلسطين. لقد حان الوقت للوقوف وإسماع صوتنا وعدم السماح بالتخريب القذر لوكالات إنفاذ القانون التي تخدم أعداء الإنسانية. منذ عام، وقبل 75 عاماً، منذ قيام دولة «إسرائيل» عام 1948، تم القيام بكل شيء لضمان ألا تكون المبادرة أبداً في أيدي الشعوب، لتبقى تحت سيطرة القوى العظمى التي تقف في وجه نضالات شعوب العالم من أجل السلام والحرية والديموقراطية. إننا نعيش لحظة حاسمة في تاريخ البشرية. ينبغي تشكيل وحدة عبر العمل لدعم قوات المقاومة. إن سياسة الاستفزاز هي مقدمة للتدخل العسكري والعدوان، بهدف إقناع الدول العربية والأوروبية وكذلك دول أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، التي تطالب جميعها بالعمل على وقف عدوان «إسرائيل» للتخلي عن مطالبها والتعاون مع القوى الأميركية الصهيونية. ولا ينبغي لنا أن نسمح بأن يُنظر إلى إيران والقوى التي تناضل من أجل الاعتراف بحق الفلسطينيين في العيش وفقاً لشروطها الخاصة، على أنهم أعداء. وهذا هو الوقت المناسب لتأجيج معارضتنا للولايات المتحدة المجرمة التي تسعى إلى تحقيق الهيمنة العالمية باستخدام الكيان الصهيوني ورئيس وزرائه المجرم. والمعيار الذي يجب أن نأخذه في الحسبان هو الوحدة في العمل مع كل أولئك الذين يأتي تحقيق العدالة لقضية الشعب الفلسطيني في المقام الأول بالنسبة إليهم. وعلينا أن نعارض الجرائم التي يرتكبها الإمبرياليون الأميركيون وأعوانهم الذين يستخدمون الصهاينة لارتكاب جرائم الإبادة الجماعية، وأن نضغط الزناد عليهم ضد إيران وكل من يسمونهم بمحور الشر. ويجب عدم التسامح مع تواطؤ المملكة المتحدة، من بين دول أخرى، وتسامح كندا الدائم مع الجرائم المرتكَبة ضد الإنسانية. ليس هذا هو الوقت المناسب لندع أنفسنا ننخدع بادعاءات الإمبريالية الأميركية بأن لديها مخرجاً في حين أنها هي التي تحافظ على الاحتلال الصهيوني لفلسطين وتستمر في تبرير جرائم الحرب التي ترتكبها القوات الأميركية/ الصهيونية. نتقدم بأحر التعازي للشعب اللبناني بفقد قائده الحبيب السيد حسن نصر الله، فقد تعهّد «حزب الله» بمواصلة النضال حتى تتحرر فلسطين، ويجب على كل من يدعم القضية العادلة للشعب الفلسطيني أن يتّحد معه في هذه اللحظة الحرجة. إن استشهاد السيد حسن نصر الله يفتح فصلاً جديداً في هذا النضال الكبير من أجل الحرية. يجب على الجميع الاستعداد لقيادتها بالبطولة والشجاعة والمرونة التي يتميز بها مقاتلو المقاومة والأشخاص الذين يتحدون الموت لإنهاء حكم أبشع المجرمين الذين عرفهم العالم على الإطلاق».

جدارية للسيد في كاراكاس الفنزويلية



(علاء مرعي)

أسطورة استفزت النظام العالمي

أحمد دقة

عندما تكون على قيد الحياة، تكون غالبية أجزاء حياتك ملكك، هذا كشخص عادي طبعاً. لكن إذا كنت شخصية عامة، فأنت تفقد الكثير من هذه الحرية في حياتك، فتكون ملكاً للجماهير. مع ذلك، تبقى قادراً ببعض التصريحات والمواقف أن تملك تأثيراً يغيّر الرواية عنك. يمكن لحدث واحد أن يقلب صورتك في أذهانهم من ضفة إلى أخرى. لكن عند موتك، كُلّ هذا التأثير والتأثير المضاد سرعان ما يضمحِل، فتُصبح حاضراً في الأذهان، فيُحكى عنك لا إليك. شخصيات كثيرة في التاريخ، تحوّلت بعد رحيلها عن العالم إلى أساطير. أساطير فعلية لا مجازية، أساطير يُحكى عنها وتتملّك الأذهان وتصير مثالاً يُضرب. تتحوّل من رمز حاضر يتفاعل، إلى شيء ينتمي إلى العالم الآخر، لكنهُ يُؤسس لمرحلة ما بعد، يكون فيها سابقاً لزمنه ولأحداث تلي غيابه عن العالم يكون فيها عالماً تكلّم عن هذا وذاك، ليصل بك الحال وتقول: «أرأيت؟ قال فُلان ذلك». وما السيد حسن نصر الله، سوى واحد من هؤلاء الذين ينظرون للمستقبل بعينٍ ثاقبة، فيكون كلامه عند رحيله.

في ظل ما يواجهه العالم اليوم من جنون، بعد «إزاحة» الجبل من مكانه، باستشهاد السيد، بمفهوم صهيوني للعالم، تحرّرت إسرائيل من الكثير من القيود تجاه القضية الفلسطينية أوّلاً وتجاه تعاملها مع العرب ثانياً، من مصر إلى الأردن وسوريا ولبنان وغيرها، وخصوصاً مع رعاية مجنون البيت الأبيض خطة تهجير الفلسطينيين وإنهاء القضية الفلسطينية بشكل تام. أشياء كان قد تحدّث عنها نصر الله في خطاباته، عندما كان يقول إنّ القضية الفلسطينية ليست مجرد شعب يُقتل ويُذبح وتؤخذ أرضه بالحديد والنار، بل تشكّل خطراً على العالم برمّته والمحيط الفلسطيني خصوصاً. هكذا أصبح نصر الله بطلاً وأسطورة مستفزة للنظام العالمي المشارك والداعم للإبادة. كان حجر عثرة في مشروع يُطوّع العالم بالموت والرُعب والخوف. عالم نكون فيه دُمى تُحاكي خيالاتها، وتهرع لموتها مُصفّقة، مُهلّلة، مُرحّبة، كخرفان تهرع للذبح بإرادتها.

كان خطّ دفاعنا الأوّل، لا عسكرياً ضدّ كيان الشرّ إسرائيل فقط، بل رمزياً أيضاً كأشخاص، لصورتنا وكرامتنا وما نعنيه للعالم ولأنفاسنا، فكانت أسطورته هي أن توضع بين خيارين لا ثالث لهما: أن تعيش ذليلاً أو تموت كريماً. وفي عالم لا يُقدّم لك سوى هذين الخيارين، مثل السيد لا يختار الذلة، مثله الذي ما انفكّ يُردّد «هيهات منا الذلة»، ارتحل ولم يُساوم على أن يعيش كارهاً لذاته.

فكّر فيها، وبعيداً من نصر الله، كيف في عالم مماثل يحدث فيه ما يحدث، يُسلب شعب كامل على البث المباشر حياته وماله ورزقه وسقف بيته؟ كيف تعيش مع هذا ولا تشعر بالعار من كونك إنساناً؟ كيف تنام وفيك انتماء لهذا العالم؟ كيف يكون لك لسان ينطُق وأذن تسمع وعين ترى ولا تجد في واقع موحِش مثل هذا، أن الحياة بثقلها كُلّه قد جثمت فوق صدرك؟ كيف تستطيع القول مجاهراً:

> ابن الأحياء الشعبية والخُبز الذي يكدّ في سبيله العامل والمزارع والموظف يومه كُلّه

أنا إنسان ينتمي إلى هذا العالم؟ نصر الله واحد منا، هو الشخص الذي كان في احتكاك مباشر طوال ثلاثين عاماً مع هذه الوقائع ومع زيف العالم ووحشيته، كيف يبقى؟ في الحقيقة، وهذا كلام قد لا يُعجب كثيرين، لقد ارتاح أبو هادي برحيله عن هذا العالم، خُلّد كأسطورة، لم تُهادن ولم ترضخ للتهديدات، ما كلّف 85 طناً من المتفجرات لإزاحته. في الأذهان، في أذهان الجنوبيين خصوصاً، نصر الله ليس إنساناً عادياً. ستقول الكثير وسيكون لك كلام في معارضة ذلك، لكنهُ ليس عادياً وأنت تعرف. واللافت أنّ هذا غير العادي، الذي كان أسطورةً للناس العاديين، هو إنسان عادي منهم.

السيد حسن أسطورة، ولم يُصبح كذلك في بيوتهم لأنهُ ذاك الخارق البعيد الذي لا يُمكن التشبُّه به، بل على العكس من ذلك، أبو هادي أسطورة لأنهُ يُشبههم، لأنهُ منهم ومثلهم ومعهم، لأنهُ ابن الأرض والطين والشارع، يفهمهم ويفهم لغتهم ويعرف بعد تعرّضهم للقصف والترويع من العدو الوحشي الذي لا يعترف بقانون أو عُرف، ما الذي من شأنه أن يُعيد لهؤلاء وقارهم. السيد قوي، يعرف كيف يُخاطِب عالماً لا يعترف سوى بالأقوياء. ابن الأحياء الشعبية والخُبز الذي يكدّ في سبيله العامل والمزارع والموظف يومه كُلّه. ابن الحواري الذي كُتب اسمه على حيطان الأزقّة والزواريب وعُلّقت صورته في كُلّ زاوية وعلى كُلّ حائط، لا لأنهُ بعيد ولا لأنهُ شخصية من الخيال، بل لأنه الواقع وفيه وعبره يكون المنطق بحسب بيوت جنوب لبنان كافة. يراه الأطفال كبطل يتطلعون إلى التشبه به، والكبار ناقلتهم من ذل إلى عز، والشباب يرونه ذاك الذي قادهم نحو النور... النور الثورة على الظلم والهوان والخضوع لجبابرة الأرض، ثورة ضد الخضوع للوحشية التي شكّلت عالمنا، فالسيد بمنظور الثائرين علم من أعلامها. ثورة تفجّرت في وجه نظام عالمي يأخذ منا أرواحنا وقصصنا وتاريخنا ويقتل كُلّ حياة فينا.

مات لأنهُ لم يُساوم على الحق، لو كان مهادناً لتركوه، لكنه بقي ثابتاً وها هو كلامه عن العالم والعرب عموماً يُترجم على أرض الواقع. «أنت إن قلتها مُت، وإن لم تقلها مُت، فقُلها ومُت». وهكذا، قالها وارتحل. الجبل الذي احتاجت إزاحته 85 طناً من المتفجرات، لم يساوم. صار أسطورة، سيُحكى عنها وعن أيامها الكثير، ستتناقلها الأجيال.

مثله، طين لا يُقاس بطين آخر. تعب الطين، آن للطين أن يرتحل، آن للجبل أن يرتاح، آن له أن يقعد من وقوفه الطويل. هاجرت الأسطورة في أيلول، راح الظل الذي احتمينا به وانكشفنا تحت أشعة الشمس، تحت وضوح العالم المريض، الذي كان مُغطى بعباءة نصر الله لزمن طويل، فكان رحيله عُرياً كاملاً بعد عام ونصف عام من حرب وحشية لا تعرف سقفاً على هيبة وكرامة شعوبنا.

مواد أخرى على موقعنا



نجمة صبحنا القريب

اسرائيل: الزعيم العربي الأول... الذي لا يكذب

يحيى دبوق

«نصر الله لم يكن مجرد مقاتل. بل كان هو المقاتل. كان المحور داخل المحور، والقوة الدافعة خلفه». بهذه الكلمات، وصف رئيس حكومة العدو بنيامين نتنياهو، الشهيد السيد حسن نصر الله. هذا الوصف ليس مجرد تصريح سياسي عابر أو شعار إعلامي؛ بل يعكس رؤية إستراتيجية لدى المؤسسة الأمنية والسياسية في إسرائيل، اختصرها رأس الهرم السياسي في تل أبيب. وبكلمات أخرى، يعد نصر الله واحداً من أخطر الشخصيات التي واجهتها الدولة العبرية منذ تأسيسها. الأمين العام السابق لحزب الله لم يكن مجرد عنصر من عناصر الصراع، بل هو سلاح إستراتيجي بحد ذاته. يعود ذلك، وفقاً لدراسات إسرائيلية عملت بشكل كبير على البحث في شخصيته في

> «نظرية بيت العنكبوت» أصبحت مركز اهتمام القادة والنخب، لم تكن مجرد فكرة عابرة، بل وسيلة قتالية يجب محاربتها بكل السبل

أعقاب الانسحاب الإسرائيلي من لبنان عام 2000، إلى كاريزمية فريدة وقدرة على التأثير في الجمهور، بما يشمل جمهور أعدائه. وفقاً لأبحاث نشرت في أهم المراكز البحثية في تل أبيب (مركز أبحاث الأمن القومي)، استطاع السيد نصر الله أن يحجز لنفسه مكانة خاصة في المشهد الإقليمي من بوابة تهديد إسرائيل وإقلاق أمنها، دولة وجمهوراً. ولم يكن دوره مقتصراً على قيادة حزب الله فقط، بل تجاوز ذلك ليصبح شخصية مركزية تؤثر في المعادلات الإقليمية الكبرى، تماماً كما يتوافق مع التوصيف الوارد على لسان نتنياهو.

في الوعي الجمعي الإسرائيلي، يتجاوز التهديد الذي يمثله الجانب العسكري ليشمل أبعاداً سياسية وإيديولوجية ونفسية. إذ تحول اسمه ليكون مرادفاً لعقيدة المقاومة في العالم العربي والإسلامي. وفي الوقت نفسه، أصبح رمزاً للخطر والتهديد في العقلية الإسرائيلية. تحول اسمه في التخاطب بين الإسرائيليين إلى مصطلح جديد دخل اللغة والتواصل في ما بينهم، كرمز وعنوان لكل ما يؤذي إسرائيل والصهاينة. وعلى نقيض قادة وشخصيات في العالم العربي خبرها الجمهور الإسرائيلي في العقود الماضية، كان اسم نصر الله يمثل الصدقية والفعل بعد التهديد، إلى الحد الذي كان يعبر فيه الإسرائيليون عن اقتناعهم بأنه أصدق من قادتهم.

الصدقية لم تأتِ وفقاً لكاريزما وكلمات أُطلقت على لسان نصر الله. بل جاءت تراكمية، على مر الزمن وسنوات الصراع والمقاومة في وجه الاحتلال، وأكدت للإسرائيليين أنهم يواجهون نوعاً جديداً من القادة، لم يكن وعيهم الجمعي معتاداً عليه.

شكلت هذه الصدقية «عقدة» لدى صاحب القرار في تل أبيب. جعلت من مواجهتها، وتحديداً في أعقاب حرب عام 2006، جزءاً لا يتجزأ من مواجهة تهديد حزب الله. باعتبار أن نصر الله، في ذاته، سلاح إستراتيجي لدى أعداء إسرائيل، يجب إعداد العدة لمواجهته، تماماً كما يجري العمل على مواجهة الوسائل القتالية في الجانب الآخر. في أعقاب الحرب، التي يعد نصر الله واحداً من أهم عوامل إفشال إسرائيل وحربها في الساحة اللبنانية، إذ كان هو نفسه وظهوره الإعلامي وتعليقاته وقدرته على التأثير في مجريات الحرب في كلا الجانبين، التأثير الكبير في نتائجها على مستوى الوعي. وهو ما أدى لاحقاً، كما أشارت دراسة إسرائيلية بحثية صدرت في أعقاب الحرب عن مركز أبحاث الأمن القومي في تل أبيب، إلى صدور قرار لدى الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بإنشاء قسم خاص ومنفصل تابع لها لإدارة التعامل مع شخصيته وما يصدر عنها. وهو ما كان يُتلمس بشكل واضح ومباشر في أعقاب الحرب وسنوات ما بعدها.

وواحد من أهم أعمال هذا القسم، هو حجب ما يصدر عن نصر الله وفقاً لتهديداته وتصنيفها، إذ إن الجمهور الإسرائيلي أحياناً كثيرة، لم يصل إليه عبر الإعلام العبري أيٌّ من تلك التهديدات، كما حصل في أعقاب تهديده خليج حيفا ومنشآت الأمونيا فيها، وهو ما جرى حجبه عن الإسرائيليين، مع طاعة شبه عمياء للإعلام العبري.

ما قبل عام 2000

لم يكن اختيار السيد نصر الله أميناً عاماً لحزب الله بعد استشهاد سلفه السيد عباس الموسوي مجرد تطور عابر، بل كان بداية مرحلة جديدة من الصراع مع إسرائيل. وكان أول قرار اتخذه السيد نصر الله، الذي أرسى دعائم هذه المرحلة، هو إطلاق صواريخ الكاتيوشا باتجاه المستوطنات الإسرائيلية. لم يكن هذا القرار مجرد رد فعل، بل كان رسالة واضحة بأن المعادلات التي حاول العدو فرضها عبر اغتيال السيد الموسوي لن تكون مقبولة.

اغتيال السيد الموسوي كان محاولة إسرائيلية لإرباك حزب الله وإضعاف قدرته على اتخاذ القرار ومواصلة المقاومة. لكن السيد حسن نصر الله، منذ اللحظة الأولى لتوليه المسؤولية، أكد أنه أمام قيادة استثنائية لا يمكن كسرها. جاء الرد الأول على عملية الاغتيال عبر مروحة من العمليات العسكرية داخل لبنان وخارجه، ما جعل المؤسسة الأمنية الإسرائيلية تعيد حساباتها. وفي تصريح لافت، قال رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية في حينه، الجنرال أوري ساغي: «لو كنا نعلم مسبقاً أن هذا ما سيحصل، لما كنا أقدمنا على قرار الاغتيال». كانت هذه الكلمات اعترافاً ضمنياً بفشل الحسابات الإسرائيلية أمام شخصية قيادية مثل السيد حسن نصر الله.

صفات قيادية استثنائية

في وعي مؤسسات القرار في تل أبيب، كما لدى الجمهور الإسرائيلي نفسه، برز السيد نصر الله كقائد شجاع، حكيم، ومصمم. لم تكن هذه الصفات مجرد عناوين إنشائية، بل كانت لها مصاديقها العملية في كل مواجهة خاضها منذ توليه الأمانة العامة لحزب الله. فقد تميزت قيادته بالقدرة على الجمع بين الجرأة في اتخاذ القرارات والحكمة في تنفيذها، ما جعل إسرائيل تدرك أنها أمام قيادة غير تقليدية، تمتلك رؤية إستراتيجية واضحة وأهدافاً ثابتة.

من أبرز القرارات التي اتخذها السيد نصر الله، والتي أفشلت التوجهات الإسرائيلية في تلك المدة، كان التمسك بخيار المقاومة واستمراريتها. في خطاب تاريخي أمام مبنى شورى حزب الله في حارة حريك، أعلن بصراحة: «لو قُتلنا جميعاً، ولو هدمت على رؤوسنا بيوتنا جميعاً، فلن نتخلى عن المقاومة الإسلامية». كانت هذه الكلمات نقطة تحول في الصراع مع إسرائيل، حيث أدركت الأخيرة أن محاولاتها لكسر إرادة المقاومة قد باءت بالفشل. ومن هذه اللحظة، بدأ الإسرائيلي يدرك أنه أمام قيادة قادرة على تحويل التحديات إلى فرص، والرد على الضربات بقوة أكبر.

عملاً بقراراته ومبادراته، نجح السيد حسن نصر الله في تحويل لحظة اغتيال السيد عباس الموسوي إلى نقطة انطلاق نحو تحرير الأرض وإعادة الثقة للمقاومة. وكانت هذه السنوات، التي سبقت عام 2000، بمنزلة مرحلة تأسيسية أثبت فيها أنه قائد قادر على مواجهة التحديات الكبرى وتغيير قواعد اللعبة لمصلحة المقاومة.

التطور في التسعينيات

من يطّلع على تاريخ حزب الله والمقاومة الإسلامية في لبنان، يدرك أن التسعينيات كانت عقداً فارقاً شهد تحولاً نوعياً في مسار المقاومة، التي اتخذت منحى جديداً وتطورت بشكل لافت على المستويات التكتيكية والإستراتيجية، رغم الظروف الدولية والإقليمية الضاغطة التي أثرت على المشهد السياسي والعسكري في المنطقة.

لم تعد المقاومة مجرد قوة محلية تواجه الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان، بل أصبحت مكوناً أساسياً في المشهد الإقليمي. كل عملية مقاومة ضد الاحتلال لم تكن تؤثر فقط على المستوى المحلي اللبناني، بل كان صداها يتردد على مستوى المنطقة والعالم. كما يروي وزير الخارجية السوري السابق فاروق الشرع في مذكراته، فإن أي عملية مقاومة فعالة في جنوب لبنان كانت تتردد أصداؤها حتى في أروقة البيت الأبيض في واشنطن.

في مواجهة هذا الصعود، اتبعت إسرائيل سياسات عدوانية متعددة خلال التسعينيات، كان يمكن أن تتطور إلى حرب إقليمية شاملة. ومن أبرز هذه الخيارات: اغتيال السيد الموسوي في محاولة لإرباك حزب الله وإضعاف قيادته. ومواجهة 1993 و1996 وتنفيذ عمليات عسكرية واسعة بهدف كسر المقاومة. لكن السيد نصر الله، الذي قاد المقاومة خلال هذه المواجهات، نجح في تحويل التهديدات إلى فرص، عبر تغيير المعادلات والأهداف التي سعت إسرائيل إلى تحقيقها عبر هذه العمليات. ورغم القسوة النسبية لهذه المواجهات، إلا أن المقاومة استطاعت في نهاية المطاف أن تفرض على إسرائيل اتخاذ قرار الانسحاب الكامل من لبنان عام 2000، بعد أن جربت خياراتها الأخرى دون جدوى.

رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية في التسعينيات، اللواء عاموس مالكا، الذي كان يدير جزءاً كبيراً من المواجهة مع حزب الله، أعرب عن إعجابه بالسيد حسن نصر الله في مقابلة مع صحيفة «يديعوت أحرونوت» (2001/9/26). قال مالكا: «أنا مضطر إلى القول إن الشكل الذي يُدير ويقود عبره تنظيمه يجذبني. إنه ينطوي على الدمج بين التفكير الإستراتيجي والسيطرة الكاملة والعمل التكتيكي واستغلال العامل النفسي». وأضاف: «نصر الله شخصية تجذب كل رجل استخبارات بشكل مطلق. أشعر بأنني أفهم مركبات كثيرة لديه، ولكن تواضعي الاستخباري لا يسمح لي بالقول إنني أعرفه سابقاً».

تطور الشخصية وتأثيرها

لا يمكن الحديث عن شخصية السيد نصر الله وتطور حضورها وتأثيرها في الساحة اللبنانية والإقليمية، بما يشمل كيان إسرائيل، بمعزل عن تطور حزب الله نفسه. وبالمثل، لا يمكن مناقشة تطور الحزب، فعاليته وتأثيره، دون الإشارة إلى شخصية أمينه العام. لذلك، إن الحديث عن نصر الله هو في الوقت ذاته حديث عن حزب الله، بدءاً من عام 1992 وحتى عام 2024، والعكس صحيح أيضاً.

في التسعينيات، نجحت المقاومة بقيادة السيد نصر الله في تحقيق إنجازات إستراتيجية غير مسبوقة، رغم الظروف الضاغطة والتحديات الكبيرة. لقد حولت التهديدات إلى فرص، وأجبرت إسرائيل على الانسحاب من لبنان، ما رسخ مكانة المقاومة كقوة إقليمية مؤثرة. شهادة قادة إسرائيليين مثل الجنرال عاموس مالكا تعكس الإعجاب الممزوج بالقلق الذي أثاره نصر الله في نفوسهم، وهو ما يعكس عمق تأثيره وقدرته على تغيير قواعد اللعبة في المنطقة.

مع مرور الوقت والتراكم، تحولت شخصية السيد نصر الله إلى «لغز» محير في الوعي الجمعي الإسرائيلي. لم يكن الأمر مجرد اهتمام عابر أو متابعة تقليدية لقائد مقاومة، بل وصل الأمر إلى حد أن الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية شعرت بالحاجة إلى تشكيل طاقم خاص لمتابعة كل صغيرة وكبيرة تتعلق به. هذا الطاقم ركز على تفاصيل دقيقة ومعقدة، بدءاً من «حركة إصبعه»، وصولاً إلى أفكاره الإستراتيجية العميقة.

عمل هذا الطاقم على تحليل خطابات السيد نصر الله ومواقفه، سواء من حيث الشكل أو المضمون. لم يكن الأمر يقتصر فقط على ما يقوله، بل امتد إلى كيفية قوله، وما تحمله كلماته وإشاراته من دلالات حول توجهاته ورؤيته لإدارة التحديات الكبرى. حتى التفاصيل الشخصية مثل حالته الصحية، وتعبيرات وجهه، وحركات يديه، وحتى نظراته يميناً ويساراً، كانت محل متابعة وتحليل دقيقين. وكل هذه التفاصيل كانت تُرصَد وتُحلل بعناية فائقة، بهدف فهم كيفية إدارة نصر الله للأزمات والتحديات التي تواجهها المقاومة.

نظرية «بيت العنكبوت»

«إسرائيل هذه أوهن من بيت العنكبوت»، هي العبارة الشهيرة التي أطلقها السيد نصر الله عام 2000 في مدينة بنت جبيل، بعد انسحاب جيش الاحتلال الإسرائيلي من لبنان. تحولت هذه العبارة إلى «نظرية بيت العنكبوت»، التي أصبحت مركز اهتمام كبير لدى القادة والنخب الإسرائيليين، والمراكز البحثية، وحتى الطواقم الخاصة لدى دوائر القرار والتخطيط. عملت إسرائيل على تفكيك النظرية وهندستها ووضع إستراتيجيات لمواجهتها، انطلاقاً من إدراكها لخطورتها.

لم تكن النظرية مجرد فكرة عابرة، بل أصبحت وسيلة قتالية يجب محاربتها بكل السبل. المفارقة الكبرى أن الخطر لم يكن في تصديق الآخرين بهذه النظرية فقط، بل في اعتقاد الإسرائيليين أنفسهم بصحتها، ما دفعهم إلى العمل على إزالتها ليس فقط من عقل العدو، ولكن أيضاً من وعيهم الجمعي. وبمرور الوقت، أصبحت النظرية رمزاً موازياً لشخصية السيد نصر الله في الوعي الإسرائيلي، حيث جسدت التهديد الوجودي الذي يواجه الدولة العبرية، وأظهرت قدرة المقاومة على استثمار نقاط ضعف العدو بشكل فعال.

خلال حرب عام 2006، كانت نظرية «بيت العنكبوت» حاضرة في تصريحات المسؤولين الإسرائيليين ومواقفهم. في الأيام الأولى للحرب، وفي نشوة الانتصار المرتقب الذي لم يصل إليه العدو، ذكرت المواقف الإسرائيلية خطاب «بيت العنكبوت»، مشيرة إلى أنه بات في الإمكان القول إن النظرية أثبتت فشلها بعدما تبين أن إسرائيل «بيت من فولاذ».

كان من المخطط أن يكون خطاب رئيس الأركان الإسرائيلي حينها، دان حالوتس، تحت عنوان «بيت الفولاذ»، ليكون رداً مباشراً على خطاب «بيت العنكبوت»، وأن يُلقى من مدينة بنت جبيل نفسها، ومن المكان نفسه الذي ألقى منه نصر الله خطابه الشهير. لكن الانكسار العسكري في المدينة والفشل في السيطرة عليها حال دون ذلك، تماماً كما جاءت النتيجة النهائية للحرب نفسها.

تأثير نصر الله في إعلام العدو

في دراسة نشرت في مجلة «العين السابعة» (العدد 64، سبتمبر 2006)، أشار الكاتب تسفي برئيل، معلق شؤون الشرق الأوسط في صحيفة «هآرتس»، إلى أن حسن نصر الله يمثل ثلاث شخصيات مختلفة في الإعلام الإسرائيلي وفي وعي الجمهور: عدو مرّ؛ وخبير في الشؤون والتدابير العسكرية؛ وخبير في المجتمع والجيش الإسرائيليين.

في بحث أكاديمي نُشر في فصلية الجمعية الإسرائيلية للإعلام («مسكروت مديا») - خريف 2012، تحت عنوان «الظهور التلفزيوني لحسن نصر الله خلال حرب لبنان الثانية»، تم دراسة خطابات السيد نصر الله السبعة خلال الحرب، مع التركيز على الرسائل اللفظية وغير اللفظية. أشار البحث إلى أن الحركات وتعابير الوجه الدالة على الصدقية والصرامة والحزم والمعرفة كانت الأكثر تأثيراً في وعي المتلقي. اللافت في البحث، هو ما يتعلق بجملة الأسباب التي بحثها المؤلفون في مقدمته، والتي أدت إلى تموضع السيد نصر الله كشخصية موثوقة ومصداقة لدى الإسرائيليين، مغايرة للقادة العرب الذين ألفوهم في السابق والحاضر. أحد هذه الأسباب يعود إلى إرادة إسرائيلية لدى وسائل الإعلام العبرية، لتشويه صورة نصر الله نفسه وضرب صدقيته ومكانته لدى الجمهور الإسرائيلي، الأمر الذي ارتد سلباً في نهاية المطاف على المخطط الابتدائي للتشويه، وأدى إلى تعزيز الصورة عنه. تأثير الظهور المتكرر التلفزيوني، بالصوت والصورة والأهم الحركات التي يبديها خلال كلماته، أدى لاحقاً إلى تعزيز صورته أكثر، خصوصاً مع اقتران كلماته بأحداث وتطورات لاحقة دلت على صدقيته. هذا ما حدث قبل الحرب، في سنوات ما قبل عام 2000 وما أعقبها، وخلال الحرب الأخيرة 2006، وصولاً إلى ما قبل نجاح إسرائيل، أخيراً، في اغتياله.

وكانت صورة نصر الله، بعد الانسحاب من لبنان عام 2000، وبعد حرب عام 2006، قد حفرت لنفسها مكاناً متقدماً في الوعي الإسرائيلي، جمهوراً وقادة ومؤسسة أمنية. ولا يمكن الإنكار أن صانع القرار في تل أبيب يعي هذه الظاهرة وأضرارها، وهو يعمل عليها بشدة ضمن هدف تقليص مفعولها وتأثيرها السلبي، ولكن ما بين الخطط الموضوعة وواقع صدقية نصر الله سِباق، كانت الغلبة للثاني. معظم الكتَبة الإستراتيجيين الإسرائيليين، الذين عملوا على هذه الظاهرة ومحاولة الحد منها، أبدعوا في توصيفها، ولكنهم عجزوا عن بلورة إستراتيجيات مواجهة.

في ذلك، صدرت أبحاث ومقالات عدة في إسرائيل وخارجها، حول ظاهرة نصر الله، بالمعنى المشار إليه. ومنها عينة، وردت في مقالة نشرت في «نيوزويك» الأميركية قبل عام (18-10-2017)، لمدير برنامج الشؤون العسكرية والإستراتيجية في مركز أبحاث الأمن القومي في تل أبيب، العقيد احتياط غابي سيبوني، الذي بحث في ضرورة «مواجهة خطاب نصر الله المعرفي، وتأثيره السلبي في الجمهور والجيش الإسرائيليين، في زمن الحرب واللاحرب».

ويؤكد سيبوني ما يسميه «القتال ضد إسرائيل من دون نيران»، في توصيفه للمعركة على العقل، حيث هي معركة على الإدراك وعلى التأثير، وهي السمة التي يتّسم بها خطاب نصر الله. على هذه الخلفية، يطالب الباحث أن يفهم ملبورو السياسات والإستراتيجيات في إسرائيل أن العقل بات جزءاً أصيلاً من معركة القرن الحادي والعشرين، والأمن المعرفي هو الآن ضرورة ملحّة للأمن القومي.

إشارات سيبوني وتوصيفاته، والمطالبات والإلحاح عليها في مقالته، وربطاً بمكانته وسعة اطلاعه على السياسات والإستراتيجيات المتبناة والمفعّلة من قبل الجيش الإسرائيلي، تشير كلها بشكل واضح لا لبس فيه إلى أن إسرائيل منذ عام 2006 على أقل تقدير، لم تجد «علاجاً» لظاهرة نصر الله بوصفها سلاحاً ثانياً لدى حزب الله، يتكامل مع الوسائل القتالية والجهود العسكرية، قبل المعارك وخلالها، وأيضاً في أعقابها.

دعوات الاغتيال

تكررت دعوات استهداف السيد حسن نصر الله، بشكل لافت على ألسنة المسؤولين الإسرائيليين وخبرائهم الإستراتيجيين. هذه الدعوات ليست مجرد تصريحات عابرة، بل تعكس حالة من القلق المتزايد إزاء الدور المحوري الذي يلعبه في قيادة المقاومة وتأثيره الواسع على مختلف الأصعدة. فهو ليس فقط شخصية قيادية في إدارة المعارك العسكرية، بل يمثّل أيضاً رمزاً مؤثراً في بيئة المقاومة والعالم العربي وحتى داخل المجتمع الإسرائيلي نفسه. هذا التأثير المزدوج، الدفاعي والهجومي، جعل منه هدفاً دائماً في خطط العدو.

السيد نصر الله، كما يشير رئيس أركان جيش العدو السابق غادي أيزنكوت، يُعتبر «مركز ثقل» للمقاومة، ما يوجب أن يجعله هدفاً مباشراً لدوره في حركة الصراع. هذا الدور لم يقتصر فقط على الجانب العسكري، بل امتد ليشمل تعزيز الروح القتالية والوعي الشعبي، وهو ما أربك حسابات المؤسسة الأمنية الإسرائيلية. حتى أن العقيد روعي ليفي، في مجلة الجيش الإسرائيلي «معرخوت»، شدد على ضرورة تنفيذ «اغتيال مركّز» لنصر الله، عبر قوات كوماندوس مدعومة من سلاح الجو، مؤكداً أن المسّ به يعني النيل من كل المنظمة، من كبار قادتها إلى آخر مقاتل. في حين أكد مستشار الأمن القومي الإسرائيلي السابق، اللواء عوزي ديان، أن «تصفية نصر الله يجب أن تكون الهدف الأول»، مشدداً على «تأثيره الهائل» على الجمهور الإسرائيلي. وهو كما يقول ديان، «يفهم نفسية الإنسان في إسرائيل»، ويؤثر بشكل مباشر على معنويات الجيش والجمهور، ما يربك عمليات التخطيط الإسرائيلي. وهذه عينة من عينات الدعوات التي تكررت بكثرة في العقدين الماضيين، للعمل بلا إبطاء على اغتياله، لكل الأسباب المساقة في البحث.

بعد ثلاثة عقود ويزيد على توليه المنصب، نجحت إسرائيل في اغتيال نصر الله، لكن هل أنهت دوره وتأثيره ومكانته وقدرته على تحريك الجمهور واستنهاضه لإسناد المقاومة ودعمها واستمرارها؟ يوجد شك كبير.

الجرف الثوري آتٍ!

علي القادري

اختلّت، إلى غير رجعة، موازين القوى لمصلحة المقاومة. وليس سقوط سوريا، ولا الدمار في البنى التحتية، هو ما يُحدّد الانتصار؛ المُحدّد هو عملية التحوّل من وعي يُشكّل ركيزة لقوى الإمبريالية إلى وعي مُناهض للاستعمار. الأهم هو مسألة الوعي. بثباتنا انتصرنا رغم الدمار، وعُرّي العدو الصهيوني كعبءٍ إستراتيجي على الغرب الذي أنجبه كي يكون العصا الطولى لغاياته في منطقتنا، ليظهر على حقيقته الإجرامية أمام جماهير «العالم».

لكن، ورغم الإنجازات الهائلة، لم يستنهض ذلك الأمة في جنباتها، جراء غياب التحرّك الثوري، استكانت الشعوب في معركة هي في الأساس معركة وجود. لم يكن المطلوب منها الإسناد. فلا إسناد في حرب وجود. كانت الحرب هذه اعتداء مُباشراً على كُل الشعوب، وكانت حرب الكُل، دافعت فيها أكنافُ من الأمة عن ثغورها ووجودها تحت راية سيد الشهداء حسن نصرالله. كانت الشهادة الفجر الساطع الذي ستنبلج أغواره فيها وتُبدّد الخُمول المُستشري في أوصال الأمة. كانت شهادته عبرة في انتصار الدم على السيف وشهادة على الوعي الثوري في كُل حدب وصوب.

ها نحن ننتصر بالشهادة والدم أكثر من انتصارنا بالسيف. ننتصر باقتلاع الوعي الزائف الذي تزرعه آليات إنتاج الوعي، كالصحافة والمدرسة أو الجامعة أو القوة الناعمة التي تطعن ألباب النخب في قلب أوطاننا. ننتصر بالتشكيك في كُل ما تقول، فهي تُغطي الحقائق الجزئية، كالبكاء على ضحايا الاستعمار، بينما تغفل عن الروابط بين الأنظمة الرجعية والكيان الصهيوني. ماكينات الوعي المُدجّن هذه تُحبط عزيمة الجماهير وتنهاها عن الحركة ضد مصالح الغرب. إنها تُخرّب منطق الفكر الذي تستوعب به الشعوب حالتها الاجتماعية وطُرق الانتقال من الرثّ في أحوالها إلى الأرقى. كُل حقيقة جزئية كذبٌ. وبتفاعلها مع الواقع كأجزاء مُبعثرة لا تتصل ببعضها البعض، تنفي كونية العمل السياسي. وبعضها هذا يجزّئ ليس فقط الحدث، بل يفكّك الروابط بين الشعوب على أسس ثقافية وهوياتية سلّحت كي تغيب ضرورة بناء الجبهات العريضة في وجه استعمار يكبر بمقدار ما يهدر من أرواح في المنطقة.

موازين القوى الصافية لا تتمثّل بسلاح مُتطوّر تكنولوجياً إنما بسلاح الوعي الثوري والالتفاف حول فكر يُركّز أولاً على استئصال أورام الغرب من أحشاء الأوطان، بما ملكنا من وسائل الكفاح وأولاها الكفاح المُسلّح المُرتكز إلى قاعدة «حرب الشعب». هذه الحرب، التي مثّلتها المعركة التي قادها سيد الشهداء، لم تنته وستأخذ طابعاً أكثر شراسة استقاء من روحه الثورية.

المعركة لم تنته بعد والهجمة الغربية ستتكشّف ضد كُل الشعوب تناسباً مع استكانة الشعوب لمشاريع الإمبريالية الأميركية. ستزهق الأرواح بوتيرة أعلى أينما كانت، لكن مع روح الشهادة حاضرةً لن تتخاذل الأمّة هذه المرّة. ستكون كلمات سيد الشهداء منارة الوعي. «لن نترك فلسطين وحدها» لم تكن أبداً عن فلسطين وحدها، لأن كُل الشعوب فلسطين. من غير المُمكن أن تترك الشعوب نفسها وحدها من دون مقاومة. من غير المُمكن أن تستهلك الشعوب نفسها إلى أجل غير مُسمى من دون أن تُقاوم. نسيج قوى الاستعمار واحد. نسيج الأنظمة الرجعية ونسيج الصهيونية من نول واحد. وبما أن نسيج الشعوب واحد، فقد مزقتها استدخالات الهزيمة المُتخيّلة. وهي مُتخيّلة لأن الشعوب لا تُهزم إلا عندما تتقمّص الوعي الذي خلقه رأس المال وزرعه في كُل حدب وصوب للتفرقة بين أجيال تعيش ظروفاً مادية واحدة.

الإنتاج لهويات مُتخيّلة صنع أقوى سلاح تنهك به قوى الشعب العامل. أولى بشائر الوعي الثوري بدأت تتجلّى بتبديد رهبة رموز الوعي التي زرعها الاستعمار وآليات إعادة إنتاج هذه الرموز، فليس من رمز لرأس المال، ليس من صحيفة، أو جامعة، أو مُؤسسة، أو اسم كبير، إلا ويكون سلاحاً ضد الجماهير. هذا ليس مجازاً إنما حقيقة واقعة.

الزمن لا يعود إلى الوراء، واستقراء التاريخ لإعادة التاريخ إلى الوراء عمل مُستحيل لأن الزمن يتغيّر قطعاً مع تطوّر ظروف الحياة. ظروف الحياة اليوم تختلف عمّا سبقها، ولذا لا يُمكن مُقارنة مُتوسّط العُمر مع زمن ماضٍ إلا إذا سَمّينا المُقارنة بجرعة زائدة من الاعتباطية. تدنّي متوسّط العمر، أي الموتُ المُبكر للشعوب بالنسبة إلى ما يُمكن أن يعيشه الإنسان في ظل التطور التقني، هو المُحرّك الرئيسي للتراكم. لكن مُلكيّة التطوّر العلمي والتقني الموضوعي، والذي هو بالأساس نتاج للمعرفة الكونية المملوكة للمُجتمعات كافة، تُخفض متوسّط العمر بما يتناسب مع مُعدلات التراكم. التطوّر التكنولوجي الذي يداوي هذا المرض أو ذاك ليُطيل الأعمار إنما يُطيلها بالنسبة إلى ظروف تطوّر قوى الإنتاج اليوم وهو يعمل على تخفيضها بالنسبة إلى مُتوسّط العمر الذي من المُمكن أن تعيشه الشعوب إذا ما امتلكت هي قوى الإنتاج. ورموز هذه التقنيات، كالأسماء العلمية الطنانة من جامعات وجوائز نوبل، تعمل على تقصير الأعمار، أي القتل المُبكر للشعوب، بمدى ابتعاد هذه الشعوب عن التحكّم بآليات إنتاج التكنولوجيا. هذه الرموز والمُؤسّسات الغربية ما هي إلا سلاح الغشاوة الذي يزيّف الوعي ليس فقط بالوظيفة المقرونة بها، إنما الأسوأ من ذلك، بقدرتها على تزوير المنطق الذي تُفسّر به الجماهير ظروفها الحياتية. هذه المُؤسسات والرموز هي وظيفة وشكل فكريين مُستدخلين كي لا ترى الشعوب الحُلول إلا بأنماط الوعي التفريقي الذي يُجزّئ الواقع إلى ساحات لا علاقة لها ببعضها البعض، ولا ترى الحُلول إلا بشكل مجزأ كذلك.

كانت رسالة سيد الشهداء العلامة الفارقة في التاريخ الحديث، التي تدعو إلى وحدة الأمّة في وجه القوى الاستعمارية كضرورة أولى تنطوي تحتها كُل ضرورات النضال الاجتماعية، كضرورة ثانية لكنها ليست بالثانوية، وطالما كانت التنمية رديفاً في الحرب ضد الاستعمار. هذا التصوّر، وهذه الشهادة العُظمى المُستمدة من تاريخنا الإسلامي في حرب العدل ضد الظلم، هي الحياة الجديدة، وهي النصر. هي التي ستكون النموذج الذي ستتبنّاه الشعوب في جعل فلسطين الوجهة الأولى للنضال، لأنها نضال من أجل حياة أفضل... بالمعنى الحرفي للكلمة.

* باحث عربي

نجمة صبحنا القريب

عن أشرف الناس وأطهرهم

جعفر البكلي

1- النبوءة

حفلت سُفرة العشاء التي نُصبت في قاعة مجاورة لصالون الطابق الثالث في قصر عين التينة، بما لذّ وطاب. وأخذ الرئيس نبيه برّي، على عادته، يمازح ضيوفه، فيتلطّف في مزاحه حيناً ويغلظ أحياناً. وكان على السيّد إبراهيم أمين السيّد، في تلك الليلة الثامنة والعشرين من شهر نيسان عام ألفين، أن يتحمّل النصيب الأوفر من مزاح «دولة الرئيس». فبرّي لا يمكنه أن يتناسى رجلاً كان من أوائل من شقّوا عصا الطاعة عليه. والتفت برّي نحو ضيفه المبجّل على مائدة العشاء، فرأى السيّد حسن نصر الله يأكل البرغل ولا يلتفت إلى اللحم في طبق «الفراكة». فبادر ضاحكاً بأخذ قطعة كبيرة من اللحم النيء من صحنه، ووضعها في صحن جليسه. وفوجئ السيّد نصر الله بهذا التصرف، وبدت على وجهه مسحة من الحياء. وقال لمضيّفه بأدب:

> لقدَ نصرَ نصرُ الله فلسطين حين عزّ من ينصرها وأسند جهادها على مدى أربعين عاماً قلَّ فيها من يكافح أو ينافح من أجل هذه القضيّة وختم حياته الشريفة باذلاً دمه على طريق القدس

إنه لا يأكل الفراكة مطلقاً. وتعجّب برّي، فكيف لجنوبيّ أن يُعرض عن أشهى أكلة في جنوب لبنان؟ وأجابه نصر الله مبتسماً: إن والدته كانت دوماً تتمنى عليه أكل الفراكة التي تصنعها له، وكان يعتذر لها في كل مرة. ولم يستسلم الرئيس برّي لهذا الجواب، فطفق يعدّد للسيّد محاسن «اللحمة المدقوقة»، وكيف أنها تصبح لذيذة حين يضاف إليها الدهن والكمّون والنعناع والبصل والحبق والفلفل والمردكوش والبرغل وزيت الزيتون... وما يزال برّي يغري صاحبه الجليل بتذوق الفراكة حتى سلّم نصر الله بأكلها، ولكن على طريقته التي يغلّبُ فيها البرغل على اللحم، ويضيف إليه المردكوش، ليضمن أن لا يؤثر اللحم النيء سلباً على معدته.

ثمّ إنّ السيد أراد أن يُميل دفة الحديث مع مضيّفه نحو الجدّ. فسأله: «كيف تقرأ يا دولة الرئيس تصريحات إيهود باراك الراغبة في الانسحاب من جنوب لبنان؟». لمعت عندئذ عينا برّي بوميض يمتزج فيه فرح وحذر. ثمّ أجاب بنبرته القوية المجلجلة: «هيدا يعني أنّ إسرائيل انهزمت. لكن نحنا ما فينا نفرح كثير بهزيمتها». سأله نصر الله: «ليش؟». فجاوب برّي قائلاً: «هزيمة إسرائيل مش هزيمة لها لوحدها. هذي هزيمة لمشروع كامل. والمشروع الإسرائيلي بمنطقتنا مشتركة فيه أطراف كثيرة: دول غربية، وحكام عرب، وحتى كمان قسم من اللبنانيين». أومأ السيّد نصر الله برأسه موافقاً. فأكمل برّي رأيه قائلاً: «هزيمة إسرائيل في الجنوب قصّة كبيرة! كبيرة لدرجة ما فيهم حتى بعض العرب والمسلمين واللبنانيين يتحملوها». سكت برّي هنيهة، ثم أضاف قائلاً، وكأنه يتنبّأ: «النصر، يا سيّد حسن، رح يجلب لك الحسد. والحسد مرض ما إلو شفاء. وع الأرجح رح يتحوّل هالحسد بسرعة لبغض وكره وعداء».

لم يعلّق نصر الله يومها على نبوءة نبيه برّي(1). واكتفى بابتسامة هادئة واثقة زيّنت وجهه الجليل.

-2- الفُسْطاطان

جاء أوّل تعبير عن الغيظ العربي الرسمي المكتوم من نصر المقاومة في جنوب لبنان عام 2000، من رجل لم يكن في الحسبان أن يكون أول من يعلن استياءه لتحرير أرض عربية بالكفاح المسلح. ولقد فوجئ الناس برئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات يتطوع بالقول: «إن قرار إيهود باراك بالانسحاب من جنوب لبنان لم يكن بفعل وطأة هزيمة عسكرية إسرائيلية في الميدان، ولكنه جاء تنفيذاً متأخراً لقرارات الشرعية الدولية، وعلى رأسها القرار 425». ولم يكتفِ عرفات بهذا الزعم، بل إنه أخذ يشكو لبعض العرب والأميركيين، وحتى للإسرائيليين أنفسهم سوء ما قد حصل في الجنوب اللبناني. ولم يتحرّج رئيس السلطة الفلسطينية من لوم وزراء في حكومة إيهود باراك على صنيعهم، و«حمق» ما أتوه، في الخامس والعشرين من شهر أيار عام 2000 (2). ولم يكن المسكين عرفات وحده الذي غَصَّ بالنصر وضاق به، فقد انقبضت منه أنفُسٌ كثيرة وغمّت. ذلك لأنّ هذا التحرير، كان أول انتصار حقيقي ناجزاً لمنطق متصاعد يعلن للناس: «إنّ الدم يمكنه أن يهزم السيف. وإن الله ناصر لمن ينصره. وإنّ مصير الناس بأيديهم، وأنّ أرضهم يستطيعون أن يستعيدوها بإرادتهم. وإنّ إسرائيل هذه التي تملك أسلحة نووية، وأقوى سلاح جوّ في المنطقة، والله هي أوهن من بيت العنكبوت». لقد باتت كلمات السيّد حسن نصر الله في ساحة بنت جبيل، في 26 أيار 2000، وكأنها الحدّ القاطع الذي يفصل في تاريخ العرب المعاصر بين منطقيْن: منطق السّلّة ومنطق الذلّة. وبدت دعوة الرجل ذي العمامة السوداء أشبه بالمفاصلة الكاملة بين فسطاطين: -تحدث عنهما جدّه الأعلى نبيُّ هذه الأمة «فسطاطُ إيمانٍ لا نفاقَ فيه، وفسطاطُ نفاقٍ لا إيمانَ فيه».

ولم يكن المحورُ الشيطاني ليَغفِل عن خطورة ما جاء به نصر الله، وما يبشّر الناس به. فسريعاً ما تعدّى منطقُه الحُسينيُّ الذي يرى بأنّ الدم قادر على مكافحة السيف ومواجهتِه، إلى فلسطين نفسها. فاشتعلت انتفاضة الأقصى لتلهب جذوة الحماسة والنضال في شعب متأهّب للانفجار، ولتُلهِم كذلك عالَماً عربياً بَرِمَ من الخنوع ومَلَّه. وبذلك أصبح لزاماً على «الشياطين» جميعهم أن يتأهبوا، ويجمعوا شملهم، ويكيدوا كيدهم، ويناصبوا جهدهم. وأخذ كل فريق من هؤلاء وأولئك يعجم عيدانه فلم يجدوا أشدّ من الفتنة شيئاً يُلقونه بين الناس لتفريقهم وتمزيقهم. وكذلك فُتِحت على عامّة الناس قنوات تلفزية لا تبث لهم على مدى الليل والنهار سوى النعرات والشحناء والجدل، وأُنشِئت مواقع إلكترونية لا تبذر إلا الكراهية والشقاق والبغضاء، وابتُدِعت منابر وعمائم ولِحى همّها الوحيد بث السموم والأحقاد والضغائن. ولم يكتفِ «الشياطين» بهذا الرجس، بل زادوا فألقوا بدم في بيروت، في 14 شباط 2005 من أجل تذكية جمْرٍ كان شرَرُه قد أخذ يتطاير من شقوق العراق، وجعلوا يؤجّجون نيراناً كان لهبها يطلّ من حزازات الماضي القديم ومراراته.

-3- تمّوز

بدا تمّوز 2006 فرصة سانحة لأعداء الأمّة من أجل الانقضاض على المقاومة وبيئتنا، والفتك بصورتها ورموزها وفكرتها، والإجهاز على قوامها وسلاحها ومقدراتها وبنيتها. وفي تلك الحرب «برز الكفر كله للإيمان كله». ولم تُترك دناءة أو سفالة لم تقترفها «إسرائيل» ومن والاها. ولم يبقَ فجور أو جريمة همجية لم يرتكبها جيش العدوّ ومن استندوا إليه. وصار تقتيل المدنيين، وهدم البنايات على رؤوس ساكنيها، ومسح الأحياء والقرى من على وجه الأرض يجري أمام أنظار العالم كله بلا ورع ولا خجل. وكانت الغاية من كل ذلك الإرهاب الوحشي، ما أعلنته كوندليزا رايس من إنشاء للفوضى «الخلّاقة» التي تمهدّ لولادة شرق أوسط جديد.

وسيراً في ركاب المشروع الأميركي، واستثماراً للإجرام الإسرائيلي، أطلّ «أنصاف الرجال» بسحناتهم اللئيمة وألسنتهم الحِداد، وشرعوا يدينون المقاومين للاحتلال في غزة ولبنان، ويحمّلونهم جريرة «المغامرة غير المسؤولة، التي تسبّبت في الحرب»، ويهدّدونهم بأنّ «الوقت قد حان كي تتحمّل هذه العناصر المسؤولية الكاملة وحدها عن إنهاء الأزمة التي خلقتها نتيجة أفعالها غير المسؤولة». ولعلّ أقسى ما واجهه نصر الله في حرب تموز أنه بخلاف «الروم» الذين كانوا يقاتلونه بغياً وعدواناً وعُتُوّاً، فقد تواطأ عليه من أبناء جلدته، «رُومٌ» آخرون كانوا أشدّ من الأوّلين ظلماً وسفالة وصفاقة وفجوراً!

غير أنّ وعد الله، وسنّته كانا، دوماً، هما ذاتُهما: «لأغلبنّ أنا ورُسُلي. إنّ الله قويّ عزيز». وكذلك خرج نصر الله من الحرب أكثر ألَقاً، وأمضى عزماً، وأشد شكيمة، وأعلى مصداقية. فارتفعت صوره التي تدلّ الناس إلى طريق الحق، في كل مكان: على زجاج سيارات العائدين إلى قراهم المدمرة في الجنوب، وعلى المباني التي مزّقها العدوان، وعلى جدران بيوت الناس البسطاء الطيّبين، وفي ساحات المسجد الأقصى، والجامع الأزهر، والجامع الأموي... وبذلك أجهَضَ النصرُ الإلهيّ، في تمّوز، مشروعَ ولادة «الشرق الأوسط الجديد» قبل أن يرى المولود المشوّه النور. وطُويت صفحة «الفوضى الخلّاقة» حتى إشعار آخر. وخَرَسَ «أنصاف الرجال» إلى حين. وانكفأ سعار الفتنة الطائفية قليلاً، ولكن دون أن يخمد تماماً.

-4- سوريا

كان اندلاع الثورة في سوريا أكبر مأزق واجهه نصر الله، في حياته. فلم يكن خافياً على أحد أن الثورة ما هي إلا كرة نار تتقاذفها غرائز وأحقاد وثارات وشهوات ومطامح وأحلام... وتتلاعب بها مخططات ومؤامرات ومكائد وغايات... وكان نصر الله يرى أنّ ما يحدث في سوريا أشبه بالفتنة التي يلتبس فيها الحق والباطل. ولقد حاول الرجل أن يدعو إلى الإصلاح ما استطاع، وسعى إلى تهدئة النفوس بما قدر عليه، وتوسّط لإخراج أناس كثر من السجون، وقضى كثيراً من وقته في المصالحة والمواءمة. ولكنّ الفتق كان يتسع كل مرة على الرتق. ولم يكن طرفَا الأزمة السورية جادّيْن في الوصول إلى حلّ: أمّا النظام، فلم يكن في حساباته أن يتنازل للمعارضة عن شيء هو بيده، وكان يحرّكه في عناده التجبر والريبة والرهاب. وأمّا المعارضة (وهي في الحقيقة معارضات تحسبها جميعاً وميولها شتى)، فلم تكن لترضى بغير قطع رأس النظام بديلاً. وكان يحرّكها في مطالبها المتطرفة الإغواء والتحريش والأوهام... ثم سريعاً ما دخل إلى ميادين «الثورة» وخنادقها التكفيريون بكل ما يحرّكهم من تعصب وتزمت وجهالة وطائفية وضغينة وحقد. وتعقدت المسألة السورية مع بروز هذا العامل الجديد أكثر فأكثر. لم تعد المسألة قصة شعب يريد مقداراً من الحرية والحقوق. بل صارت الأزمة صراعاً بين المحاور الدولية. وأصبح الرهان الحقيقي هو إمّا أن تُفتكَّ سوريا من محور المقاومة، ويغدو نظامها الجديد خنجراً في ظهور المقاومين، أو أن تبقى سوريا -كما هي- حليفاً وظهيراً وسنداً.

وبسبب تلك الظروف الدقيقة قال نصر الله: «إن حزبه سيخوض الحرب ضد التكفيريين إلى آخر مدى. لأنه إذا لم يبقَ له سوى أن يختار، فلن يختار جبهة تدعمها أميركا وإسرائيل، ومعهم شاقو الصدور وقاطعو الرؤوس، ونابشو القبور... ولأنه إذا سقطت سوريا في أيدي التكفيريين، وفي أيدي أميركا وإسرائيل من ورائهم. فإنّ ذلك معناه سقوط بنية المقاومة في لبنان وفلسطين أيضاً. ومن أجل ذلك أضحت الحرب في سوريا ضرورة لتحصين ظهر المقاومة. فالمقاومة لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي، وظهرها ينكشف، وسندها ينكسر. وإنّ الغبي وحده من يبقى يتفرج على الموت والحصار والمؤامرة تزحف نحوه، دون أن يحرّك ساكناً».

5 - طوفان الأقصى

قد يختلف الناس في تقييم موقف السيّد نصر الله من الأزمة السورية بين منصِف ومجحِف، ولكن الصادقين وحدهم لن ينسوا للرجل الجليل أفضاله ومواقفه ومعروفه في فلسطين. ولن يَغفَلوا عمّا عاش من أجله، ومات في سبيله. لقد نصرَ نصرُ الله فلسطين حقاً حين عزّ من ينصرها. وأسند جهادها، وشارك مجاهديها، على مدى أربعين عاماً، قَلَّ فيها من يكافح أو ينافح من أجل هذه القضيّة. ثم بعد ذلك كله، ختم الرجل حياته الشريفة باذلاً دمه الزكيّ ودماءَ أحبابه الشهداء على طريق القدس. من أجل هذا وغيره وغيره، يبقى نصر الله سيّدنا وقائدنا وقدوتنا، وأشرف الناس فينا، وأعظم من جاء في زماننا وأطهرهم. وإذا جاز لنا أن نفخر أمام أبنائنا وأحفادنا بشيء حصل في حياتنا، فسوف نقول لهم بلا تردد: «إننا نفخر لأننا عشنا في الزمن الذي وُجِد فيه السيد حسن، وتكلم خلاله السيد حسن، وحملت البندقية إلى عنان السماء يدُ السيد حسن».

الهوامش:

1- سرد الوزير علي حسن الخليل وقائع مما جرى بين الرئيس برّي والسيّد نصر الله، في ليلة 28 نيسان 2000 وغيرها، ضمن حلقات نشرت في جريدة «السفير» اللبنانية، في شهر أيلول 2011. وذلك للردّ على ما راج في وثائق «ويكيليكس» من أقوال منسوبة إلى برّي ووزرائه في حرب تموز 2006.

2- اشتكى ياسر عرفات إلى شلومو بن عامي، وزير الأمن الداخلي في حكومة إيهود باراك، من أنّ الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان في أيار 2000 كان بمنزلة «حماقة كاملة». وذكر بن عامي، في مقابلة تلفزيونية مع القناة 13 الإسرائيلية أنّ عرفات أخبره في مباحثات كامب ديفيد عام 2000، أن الانسحاب الإسرائيلي من لبنان لم يكن قراراً حكيماً. كما سرد السفير الأميركي في إسرائيل مارتن إنديك في كتابه «الأبرياء في الخارج»، أنه في 27 مايو/أيار، أي في اليوم التالي للخطاب الشهير للسيد نصر الله في بنت جبيل عن بيت العنكبوت، سافر عرفات إلى مصر للتباحث مع حسني مبارك، وأن المصريين وجدوه منزعجاً جداً من تأثير انتصار حزب الله. ويقول إنديك «إن عرفات اشتكى بشدة لمبارك من أن نصر الله يصدّر أفكاره المتشددة إلى شوارع الضفة الغربية وغزة».

ونقل موقع «ماكور ريشون» عن شلومو بن عامي قوله، في عام 2005، إنه لا شك لديه في أن الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان ترك انطباعاً عميقاً في وعي عرفات. لقد شعر بالذل والحرج لأنه اضطر إلى المساومة على أرضه، في حين أجبر 500 مقاتل من حزب الله إسرائيل على الانسحاب من بلادهم، من دون قيود أو شروط.

وفي رأيي، إنّ انتصار حزب الله اللبناني عام 2000، ترك أثراً حقيقياً وغائراً في وعي عرفات وتفكيره. فحاول جاهداً أن يستدبر أمره، ويستدرك ما فرّط فيه. ولكنّ أوان الاستدراك كان قد فات.

* كاتب تونسي

أن تكون مقاوماً هو أن تكون وحدوياً

معن بشور

كُتب الكثير، وسيُكتب الكثير، عن سيد شهداء الطريق الى القدس السيد حسن نصرالله الذي عرفته الأمة مجاهداً وقائداً ومفكّراً وفقيهاً وصاحب حضور طاغ في ميادين الجهاد والعمل السياسي، لكن سأحاول في هذه الكلمة أن أتحدث عن جانبين من شخصية القائد الكبير وهما التواضع والوفاء...

فلقد لفتني منذ عرفته، في بداية تسعينيات القرن الماضي، وبعد انتخابه أميناً عاماً لحزب الله، على أثر استشهاد الأمين العام السابق الشهيد الكبير السيد عباس الموسوي، في مثل هذه الأيام من عام 1992، أن من أبرز فضائل الشهيد الأسمى هو التواضع بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ودلالات، وما تشكّله من فضيلة تجعله يستقطب احترام ومحبة وثقة كل من عرفه مباشرة أو عبر إطلالاته التي كان ينتظرها العالم كله.

فالتواضع هو فضيلة تحتشد في داخلها فضائل عدة، فهي تعبير عن ثقة بالنفس لا تجعل صاحبها مضطراً إلى التعالي على غيره ليضمن احترامه وتسليمه له بالقيادة، ولأن التواضع مقرون عادة بالصدق والشفافية والبساطة وكلها مزايا ما توفّرت لقائد إلا وانتزع المحبة والإعجاب والتسليم بمكانته ودوره.

وهذا التواضع الجميل الودود لدى أبي هادي يجعل كل زائر له يشعر بأن لا حواجز بينه وبين القائد الذي دخل تاريخ أمتنا بكل قوة، ويبتعد في العلاقة معه عن أي تكلّف أو تزلّف طالما اتّسمت العلاقة بذلك بين الناس والزعماء وأصحاب الفخامة والجلالة والسمو.

فتواضع السيد نصرالله هو الذي فتح له القلوب قبل العقول لتصبح له مكانة قلّما احتلّها قائد، مكانة شكّلت دفعاً كبيراً للجهاد خلفه ومعه، بل للاستعداد بالتضحية بالأرواح على الطريق التي اختارها طيلة حياته، هذا الرجل الذي ربط حياته بالقضايا المحقّة والعادلة في حياة الأمة.

أما الميزة الثالثة التي كنت ألمسها في سماحة الشهيد الأبقى في العقول والقلوب، فهي وحدوية القائد المقاوم الذي حرص أن يجسّد إيمانه بوحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الإنسانية بسلوك يومي، وكدليل له في كل علاقاته الوطنية والعربية والإسلامية والأممية.

كان السيد حسن يتحمّس بعاطفة المؤمنين، وبحماسة الشباب، لكل فكرة أو مبادرة أو مشروع ذي طبيعة وحدوية. وحين ارتأينا في المؤتمر القومي العربي السعي إلى تأسيس "المؤتمر القومي - الإسلامي" للخروج من ذلك الصراع المفتعل بين القوميين العرب والإسلاميين، كان السيد نصرالله من أكثر المتحمّسين لهذه الفكرة انطلاقاً من قناعته الثابتة بأن التلاقي بين تيارات الأمة هو الحصن لكل جهد يسعى إلى حماية الأمة وتحرير أرضها والدفاع عن حقوقها، وأن معظم ما أصاب الأمة من نكبات ونكسات إنما نجم من عقلية كانت سائدة وهي العقلية التي تعتمد فكرة تغليب تيار على تيار، وفئة على فئة، وجماعة على جماعة.

ومثلما كان لتجاوبه مع فكرة "المؤتمر القومي - الإسلامي "دورٌ كبيرٌ في إنجاح اللقاء بين التيارين وفي السعي إلى بناء كتلة تاريخية تحمل مشروع النهوض في الأمة، كان تجاوبه أيضاً مع فكرة المشاركة في المؤتمر القومي العربي بعد سنوات من تأسيسه، ورشّح يومها الوزير السابق الحاج محمد فنيش لعضوية المؤتمر باسم حزب الله، ليصبح في ما بعد كل من النائب السابق السيد نواف الموسوي، والنائب الحالي الشيخ حسن عز الدين والنائب السابق عمار الموسوي، أعضاء في الأمانة العامة للمؤتمر حتى اليوم.

وأذكر أنه حين طرح الدكتور خير الدين حسيب والدكتور أحمد صدقي الدجاني فكرة مشاركة قياديين من حزب الله في المؤتمر القومي العربي الحامل للمشروع النهضوي في الأمّة... أجابنا ضاحكاً: "نحن أيضاً نحمل المشروع ذاته هو مشروع نهوض الأمة الذي يرى في المقاومة حجر الزاوية فيه"... وهكذا كان وبات المؤتمر مفتوحاً كإطار للتحاور والتشاور بين كل مكوّنات الأمة المؤمنة بالمشروع النهضوي العربي والداعمة للمقاومة...

هذا العقل الوحدوي الجامع هو الذي يفسر كيف تعاطى "حزب الله" بقيادة السيد حسن مع الكثير من العواصف والزلازل التي كانت تهز مجتمعاتنا وبلادنا، بدءاً من لبنان ومحاولات استكمال اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري الجسدي، بالاغتيال السياسي للمقاومة اللبنانية، وقيادتها المتمثلة في حزب الله. وهكذا تعامل مع الحرب الأميركية على العراق عام 2003، حين دعا مبكراً في خطاب شهير له قبل أسابيع قليلة من الحرب الأميركية على العراق إلى ضرورة قيام طائف عراقي – عراقي يحول دون الاحتلال الأميركي – الأطلسي للعراق وما سيتركه هذا الاحتلال من انعكاسات على مجمل الوضع العربي والإسلامي.

وبعد الاحتلال علينا ألّا ننسى خطابه الشهير في افتتاح "المؤتمر العربي العام الداعم للمقاومة العراقية" وذلك بعد أيام من احتلال بغداد، حين قال: "إذا توقّع الأميركيون أن يستقبلهم العراقيون بالورود والرياحين فأنا أقول لهم إن العراقيين سيواجهون الاحتلال الأميركي بالقنابل والرصاص"، وهو ما حصل بالفعل.

كما أن موقفه في الأزمة السورية التي انفجرت في آذار 2011، اتسم بالحرص على قيام حوار وطني بين النظام والمعارضة، وهو دور معروف لم يعجب حينها بعض الرؤوس الحامية في أكثر من مكان.

أما في لبنان، فالجميع يدرك من خطّط لإدخال لبنان في نفق حرب طائفية ومذهبية بعد اغتيال الرئيس الحريري في 14 شباط 2005، لكنّ حزب الله حرص بقيادة الشهيد السيد حسن على تفادي كل محاولة لتفجير الموقف الشعبي والسياسي، انطلاقاً من الحرص على وحدة اللبنانيين التي تشكل أبرز الضمانات لحماية المقاومة، وهو أمر تمثّل بحرص السيد نصرالله على تفويت العديد من الفتن التي أريد لها استدراج حزب الله إلى صراعات داخلية، ولعل أبرزها خطابه الشهير بعد اغتيال الشهيد أحمد محمود في محلة قصقص فقال: "لو قتلوا منّا ألف أحمد محمود لن يستدرجونا إلى معركة داخلية".

ولعل حرص السيد حسن على أن يلتقي العماد ميشال عون قبل أن يصبح رئيساً في كنيسة مار مخايل ويعقد معه ما عُرف بـ"تفاهم شباط" هو دليل آخر على حرص السيد حسن وحزب الله على بناء علاقات تتجاوز الاصطفافات الطائفية والمذهبية.

ولا أنسى كيف أننا في أكثر من لقاء معه، أنا والوزير السابق بشارة مرهج والمحامي خليل بركات، كان السيد الشهيد يروي لنا عن سعادته باللقاءات الدورية التي كان يجريها مع الرئيس الحريري والتي كانت تصل إلى نتائج إيجابية، وكان الرجلان يحرصان أن تبقى غير معلنة حماية لها من قوى متضررة، محلياً وإقليمياً ودولياً والتي قد يكون لها دور في تدبير عملية اغتيال الرئيس الحريري لمنع هذه اللقاءات من الوصول إلى نتائج تنعكس إيجاباً على الوضع في لبنان والمنطقة.

إن وحدوية السيد حسن كانت تتجلّى في خطبه ومواقفه وعلاقاته انطلاقاً من قناعته التي كان يعلنها مراراً. "أن تكون مقاوماً يجب أن تكون وحدوياً... وكل انزلاق إلى ممارسة أو كلام غير وحدوي سيؤدي بالضرورة إلى إضعاف المقاومة".

لم يكن التواضع في العلاقات والوحدوية في التطلعات في حياة الشهيد القائد السيد حسن نصرالله، أن يتكلّلا سيرته الجهادية والفكرية لولا اتسام الرجل بصدق لا ينكره حتى أكثر خصومه عداءً له، فلم يكن الصدق عنده واجباً دينياً وأخلاقياً فقط، بل كان وسيلة لبناء علاقات سليمة بينه وبين كل الجهات والأطراف التي يتعامل معها.

* الأمين العام السابق للمؤتمر القومي العربي



نجمة صبحنا القريب

لا وصية للسيد سوى المقاومة

ياسر زغيب *

إن طُلب من مُحلل أو مُراقب أو سياسي مُحايد وصف السيد حسن نصر الله بكلمتين، فإن كلمة المقاومة ستكون إحدى الكلمتين حتماً، قد يُقال إنه «سيد المقاومة»، أو «إمام المقاومة» أو «مُلهم المقاومين»، أو «المقاوم الأممي». وما من مُنصف يُمكنه أن يحول بين الرجل وفعله، أو أن يُغطي شمس الحرية التي أشرقت على يديه بغربال الوهم والافتراء.

لقد أسّس السيد الشهيد على مدى عمره، مقاومةً باللحم الحي لفتيةٍ خرجوا من أحزمة البؤس، وقرى الحرمان، حتى أنجزوا بعد ثمانية عشر عاماً من التضحيات الصامتة والشهداء الغرباء، تحرير عام 2000، وهو أول تحرير لأرض عربية بقوة المقاومة. كما حققوا نصراً في تموز عام 2006 على جيش مُدجج بأكثر ترسانة عسكرية فتكاً في العالم، هو الجيش الذي وقف على تُخوم البلدات الجنوبية المُحازية للحُدود مع فلسطين المُحتلة مُدة ثلاثة وثلاثين يوماً من دون أن يُحكِم السيطرة على بلدة واحدةٍ بالتمام والكمال. رغم أن الجيش نفسه، كان قد اخترق حُدود خمس دولٍ عربية في 7 أيام في حرب حزيران من عام 1967، محتلاً بما يُعادل سبعة أضعاف مساحة لبنان.

> **تجاوزت المقاومة دورها في تشكيل السند للشعب الفلسطيني إلى إحباط مشاريع التطبيع حتى بات الأميركيون والإسرائيليون والمُطبعون يُعلنون أن المقاومة بقيادة السيد الشهيد تُشكل العائق الأساس أمام إحلال «السلام» بين العرب وإسرائيل**

المشهد ذاته تكرر في حرب أيلول من عام 2024، لكن الصورة كانت أكثر كربلائيةً، فالقائد المُؤسّس للمقاومة استشهد، ومعه قادة الميدان العسكري من الصف الأول والثاني. لكن رجاله قرّروا بوعي القتال حتى الشهادة، ولم يكن في المشهد أمام المقاومين حينها سوى الشهادة. ومع أن الحرب طالت ضعفي حرب تموز 2006، إلا أن الجيش الذي لا يُقهر، بقي عاجزاً عن دخول البلدات الحدودية، وقد أقفل آلاف المقاومين خطوط التواصل مع كُل العالم، وقرروا الصمود بأجسادهم العارية أمام آلة الحرب العالمية عليهم، والصورة المرتسمة في أذهانهم «الحفاظ على حُلم سيدهم الشهيد المُتمثل بحفظ المقاومة».

في المُقابل وإذا طُلب من نفس «المُحلل» أو «المُراقب» أو «السياسي» المُحايد وصفاً لفعلٍ يُخلّد السيد الشهيد بكلمتين، فإن أكثر الإجابات إبداعاً، «حفظ المُقاومة»، «استمرار المقاومة».

لكن هل المقاومة هي فعل رفض للرفض فقط؟ أم أنها فعل لغايات أسمى من مُجرد الرفض؟ وما هي الغاية التي أنشدها السيد ورفاقه وأسلافه من مؤسسي وقادة هذه المقاومة؟

بقدر ما تبدو فكفكة عناصر الإشكالية الآنفة سهلةً، بقدر ما هي مُعقدة ويتداخل فيها العقائدي بالتاريخي، والسياسي بالديني، والوطني بالقومي، والواقعي بالماورائي. ففكرة المقاومة الإسلامية التي أطلق جذوتها السيد الشهيد حسن نصر الله، وأستاذه السيد الشهيد عباس الموسوي ومجموعة من رفاقهما الشهداء والأحياء، هي فكرةٌ كلية عامة تنطلق من رفض الظلم ووجوب رفعه، أياً يكن الظالم وأياً يكن المظلوم. وهي من دون شكٍ تستمد وهجها الفكري والعقائدي من رفض أئمة الشيعة عبر التاريخ لكُل أشكال الظلم والقهر والاستبداد حتى غدا الرفض اسماً مُرادفاً لهذه الطائفة التي يشتمها البعض بما تُفاخر به، حين يطلقون على أتباعها اسم «الرافضة» أو «الروافض».

وانطلاقاً من هذا الإرث التاريخي في الرفض، كانت المقاومة الإسلامية في لبنان قبل كُل شيء لواء رفضٍ لظلمٍ كان سبباً مُباشراً في نشأتها، تمثلَ في الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 واحتلاله أكثر من نصف مساحة لبنان بما في ذلك العاصمة بيروت، وتزامن ذلك مع انتكاسة كبيرة لقوى المقاومة اللبنانية والفلسطينية على حدٍ سواء، وانسحاق تام لإرادة الدولة أمام الاحتلال.

قبل نشوء هذه المقاومة، كان قادتها يقاتلون في صفوف فصائل المقاومة الفلسطينية والوطنية اللبنانية، فالسيد عباس الموسوي كان مُقاتلاً مُتطوعاً مع حركة فتح في سبعينيات القرن الماضي، بينما كان القائد الجهادي عماد مغنية مُنضوياً في كتائبها، وكان السيد حسن نصر الله عُضواً فاعلاً في أفواج المقاومة اللبنانية، ومثله الكثير من قادة المقاومة الناشئة أمثال الشهيدين فؤاد شكر وإبراهيم عقيل وغيرهما الكثير من الأحياء والشهداء، وقد وجد هؤلاء جميعاً في الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 وما نتج منه، دافعاً لتأسيس مقاومة جديدة تستفيد من المُستجدات بسلبياتها وإيجابياتها، وتؤسّس لطرد الاحتلال من لبنان، وفقاً لإستراتيجيةٍ وأيديولوجيةٍ تؤمن بأن رفض الاحتلال ومقاومته في لبنان هو جزء من رفض وجود الكيان الصهيوني ومقاومته في فلسطين.

طوال أربعة عُقود ويزيد. تميزت هذه المقاومة عن غيرها بجملة عناصر أهمها:

1 – لم تنطلق المقاومة عن تنظيم سياسي، بل كانت فكرة تبلورت بين مجموعات ونُخب بادرت إلى مُلاحقة العدو، قبل أن تتبلور كتيار سياسي.

2- لم تكن المقاومة الناشئة على تنسيق أو توافق مع أي نظام أو دولةٍ عربية في نشأتها الأولى، الأمر الذي أكسبها حرية في خياراتها وتوجهاتها ورسم أولوياتها.

3- شكل الاجتياح الإسرائيلي للبنان وانهيار المقاومة الفلسطينية تحدياً هائلاً كاد أن يضع لبنان في الحضن الإسرائيلي، وقد استطاع مُوسّسو المقاومة الناشئة تحويل التحدي إلى فرصة لبناء هيكل جديد لمقاومة تستفيد من التجارب السابقة بسلبياتها وإيجابياتها.

4- اتخاذ المؤسسين الأوائل من الإسلام كدين وشريعة منهجاً لبناء الفرد المقاوم، والرؤية التي يستند إليها الفعل المقاوم، ما أعطى دافعاً وحافزاً لنشأةٍ سريعة ومُلتهبة بروح ثورة الإسلام على الظلم التي تجسّدت في ثورة الإمام الحسين في كربلاء. وقد وجدت هذه المقاومة في العقيدة التي انتهجتها مُجتمعاً كاملاً مقاوماً مُستعداً للتضحية تأسياً بالحسين وتضحياته.

5- ترك المُؤسسون كُل الدنيا من أجل المشروع الذي آمنوا به، قاوموا وحرّروا واستُشهدُوا، اتُّهموا وخُوِّنوا وطُعنوا، وما بالوا، وكانوا بعد كُل إنجاز، وعلى منبر كُل نصر أو تحرير يهدون النصر للجميع، فكانُوا ومقاومتهم «النهر الذي ما غص يوماً بالسواقي، وما تخلى لحظة عن أرض البوار».

6- كانت بنادق المقاومة الأولى وذخيرتها مما جمع مُجاهدوها من العاصمة والمناطق يوم رُمي السلاح لأنه أصبح عبئاً، ثم أضافوا عليه من جني حقولهم وثمار أعمالهم. المقاومة الناشئة كانت فعل إرادة وإيمان عاكستا مجرى الأحداث وتوقعات المُحللين الذين رأو حينها أن لبنان والمنطقة قد دخلا في العصر الإسرائيلي.

8- كُل مُقاومات الأرض ضد المُحتلين كانت تُقاوم احتلالاً خارجياً وجيشاً من العُملاء في الداخل، أما مقاومة حزب الله فكانت تُقاوم جيشاً مُحتلاً ودولةً عميلةً وجيشاً أسسه الاحتلال من العُملاء، كما أنها كانت تُقاوم مجموعة من أشكال الوعي المهزوم في الأمة، حين جرى التسويق لفكرة أن المقاومة مُغامرة وعيناً تفقأ نفسها بالمخرز. ومع ذلك استطاعت المقاومة أن تصنع وعياً جديداً في الأمة، وأن تُسقط مع حلفائها الدولة العميلة، وأن تُفكك جيش العُملاء، وأن تطرد الاحتلال بأسلحة تعدو بدائية جداً مقارنة بترسانته.

9- وجد الشباب المُؤسسون لهذه المقاومة في إيران داعماً مادياً ومعنوياً، ومدداً أيديولوجياً ودينياً تُشاركهم نفس التطلعات في الرفض لمشاريع التوسع والهيمنة وضرورة مُقاومتها. وقد شكلت العلاقة القوية بين إيران وسوريا مدخلاً للتواصل مع المقاومة وساحتها في لبنان، حتى غدت إيران دولةً وشعباً وقواتٍ مُسلحة الداعم والسند الأول وأحياناً الوحيد لهذه المقاومة.

رغم كل إنجازاتها، إلا أن قيادة المقاومة رفضت الاستثمار في الداخل اللبناني، وبقي تمثيلها السياسي والنيابي والإداري في الدولة ومُؤسساتها خجولاً مُقارنة مع حُضورها الشعبي والسياسي الواسع على مساحة الوطن. هذا النُبل السياسي كان محط سُخرية تارة وانتقاد تارة أخرى واستخفاف وتجرؤ على المقاومة طوراً ثالثاً، لكن المقاومة بقيادة الشهيد السيد نصر الله، بقيت على نفس العهد بالترفع عن مُحاولات جني ثمار المقاومة وإنجازاتها في الداخل اللبناني. كان هذا السلوك سلوكاً دينياً وأيديولوجياً انعكس في خطابات وكلمات السيد الشهيد وقيادات المقاومة وفي وصايا الشهداء حتى غدت وصية السيد عباس الموسوي القائلة:«الوصية الأساس حفظ المقاومة» هي وصية كُل شهيد، والكلمة الأكثر تردداً في كُل خطابات قادة المقاومة.

وبعيداً من التعقيدات الإقليمية والدولية التي تعج بها المنطقة مُنذ بدء مُفاوضات «السلام» مع إسرائيل مطلع التسعينيات من القرن الماضي، فإن السيد حسن نصرالله استطاع أن يجعلها عنصر قوة للشعب الفلسطيني. ولم تقتصر القيمة الإستراتيجية لقوة المقاومة الإسلامية في لبنان على تشكيل السند والأمل للشعب الفلسطيني، بل تجاوز دورها الريادي، إلى إحباط مشاريع التطبيع مع إسرائيل، حتى بات الأميركيون والإسرائيليون والمُطبعون العرب يُعلنون أن المقاومة بقيادة السيد الشهيد تُشكل العائق الأساس أمام إحلال «السلام» بين العرب وإسرائيل، وكان رد السيد الشهيد بأن أكد على هدف اقتلاع الشجرة الخبيثة المُسماة «إسرائيل» من جسد الأمة، مُعلناً: «أنه لو تخلى كُل العالم، فنحن شيعة علي بن أبي طالب لن نتخلى عن فلسطين». جاء «طوفان الأقصى» وما لحقه من حرب إسنادٍ من لبنان لتجعل الشعار واقعاً، وليصبح «حزب الله» حزب فلسطين، وشهداؤه شهداء على طريق القدس، وأمينه العام يتقدم قافلة الآلاف من الشهداء على هذا الطريق.

توقفت الحرب وغبارها لم يتوقف وجثامين شهداء المقاومة لم تُنتشل من تحت الرُكام وعشرات آلاف الأسر المقاومة تُلملم جراحها، وتتعثر في سلوك سبيل قُراها، وإذ بجيوش العُملاء تخرج مع رمادِ أجساد الشهداء، لترقص على الألم وتستغل الوجع، وتفتح البازار مع المُحتل على الثمن الذي يُمكنه جنيه من الطعن في ظهر المقاومة التي ظن هؤلاء أنها ركعت على ركبتيها.

عود على بدء، إن العُملاء مهما اختلفت توصيفاتهم ورتبهم ومراتبهم وأغلفة أجسادهم النتنة، يشتركون في صفة واحدة هي أنهم لا يتعلمون من التجارب ويعشقون رائحة المزابل فهم لا يُميزون بين الرُكوع والارتقاء، ولا يعلمون أن سقوط الشهيد ارتقاء لأمة، وارتقاء العُملاء سُدة الإمرة هو بداية الانهيار لهم ولما يُمثلون، لأن العُملاء يعيشون في الظلام ومتى ظهروا انتهوا.

قال السيد حسن نصرالله في تأبين الشهيد المُبدع عماد مغنية في الرابع عشر من شباط 2008: «لقد ترك لكم عماد مغنية عشرات الآلاف من المُقاتلين المُدربين المُستعدين للشهادة». والمُدقق في ثنايا كلمات وريث أمانته الشيخ نعيم قاسم في السادس عشر من شباط 2025 يُدرك أن هذه المقاومة لا تزال يدها على الزناد وقلبها على العباد والبلاد، تدفع شُبهات المُغرضين بيد وتُمسك بالسلاح بالأخرى، وما أقرب اليوم الذي سيُعلن فيه أمين عام حزب الله الجديد: «لقد ترك لكم السيد الشهيد حسن نصرالله عشرات الآلاف من المُقاتلين المُدربين المُستعدين للشهادة». وإن غداً لناظره قريب.

هكذا فقط يُردع العدو، ويخسأ العُملاء وتَقرُّ أعين الشهداء، ويستبشر المقاومون، وتُحفظ مسيرة السيد الشهيد التي لم يكن السلاح يوماً عنصر الحسم فيها، إنما إرادة القتال والروح المُقاتلة. لأن المقاومة والرفض سيرتا حياة ومسيرتا أمة كانت كموج البحر متى توقفت عن المقاومة والرفض انتهت، لذا ستستمر هذه الأمة تُقاوم الظلم والاحتلال ووجود العمالة بالأسنان والأظفار.

*كاتب لبناني



نشيّع جسداً ونستبقي رمزاً

حامدين صباحي*

غداً سنشيّع السيد،
سنلقي عليه السلام الأخير،
سنحمله فوق أكفّنا وأكتافنا ورؤوسنا في الموكب الحزين.
تفيض قلوبنا وجعاً وعيوننا دمعاً وترتجّ أرواحنا بارتجافة المريد في جنازة الولي.

غداً سيُثوى كل هذا العنفوان في ثرى لبنان، في الأرض التي أحبها، نبت منها وإليها يعود مستشهداً دفاعاً عن استقلالها وسيادتها وكرامتها لتبقى محرّرة خالصة لشعبها.

طهر الثرى وطهر الجثمان يمتزجان، والأرض التي كانت مربضه ستكون غداً مرقده، ومن مرقده سيشعّ النور.

غداً نشيّع السيد في مشهد الختام الذي يؤكد غياب الرجل وهو نفسه مشهد الافتتاح الذي يؤكد حضور الرمز.

في لحظه الهول التي استشهد فيها ارتقى السيد من مكانة القائد إلى مقام الرمز، ومقام الرمز هو المقام العلي.

في حياته واستشهاده استحقّ السيد عن جدارة أن ترفعه الأمة مكاناً علياً. فالأمم لا تخطئ في اصطفاء رموزها، ومن أقدر أو أجدر بمقام الرمز من القاده الشهداء؟

لا يضاهي عمق حزننا إلا تسامي اعتزازنا بشهدائنا - رموزنا. ومن أحق أن يرفع رأسه فخراً واعتزازاً أكثر من الأمة العربية التي أنجبت من صلبها قادة عظاماً شهداء رموزاً للإنسانية والتضحية والتحرر الوطني بمكانة وقيمة سادتنا وقادتنا حسن نصرالله وهاشم صفي الدين ويحيى السنوار وإسماعيل هنية ومحمد الضيف في طليعة الآلاف من الشهداء، إنهم مناط فخرنا وعنوان كرامتنا وبرهان جدارتنا، وهم أقمار ليلنا وشموس نهارنا وحُداة ركبنا المتواصل حتى النصر.

غداً نشيّع السيد جسداً ونستبقيه رمزاً. وكما دافع السيد عنا وحفظنا وهو القائد فعلينا أن ندافع عنه ونحفظه وهو الرمز، لأن الحرب على الرمز ستكون أشرس من الحرب على الرجل.

ذلك أن السيد رمز، وككل الرموز الصادقة التي ترفعها الشعوب مقاماً علياً. هو تكثيف لهوية الأمة وعنوان لشخصيتها وسماتها، واختصار لأمانيها ومقاصدها، وتعبير عن قيمها الأخلاقية الأرقى والأنبل والأجمل، ونداء للأمة بأن تواصل السعي لاسترداد حقوقها وردع أعدائها، ونور يضيء الوجدان ويثبت اليقين ويستنهض الهمم ويشحذ العزم، ويحفظ الأمل ويبدّد ظلام اليأس. وهو سلاح ماض بيد الأمة لتواصل المقاومة حتى اكتمال النصر.

والرمز سلاح ماض في يد الأمة، وإذ يكثر المتداعون إلى نزع سلاح المقاومة فإن القيمة العظيمة للرمز أنه سلاح يستحيل نزعه مهما حاول الأعداء.

ولكل هذا سوف يتكالب عليه أعداء الأمة في حرب ضروس بلا هوادة هدفها تشويه الرمز ونزعه كسلاح من يد الشعب، وكلما التفّ المؤمنون بالرمز من حوله تكالب الأعداء عليه.

وما زال درس الزعيم الرمز جمال عبد الناصر مثلاً حاضراً، فالحرب عليه لم ينطفئ لها أوار حتى الآن طوال أكثر من نصف قرن على ارتقائه من مكانة القائد إلى مقام الرمز، ولم يزل أعداء الأمة يستهدفونه ويحاولون النيل منه، ولم يزل كارهوه يبثّون حقدهم عليه وما يرمز إليه من قيم التحرر والانعتاق من الهيمنة والعدل الاجتماعي والوحدة العربية والعزة والكرامة والسعي لاسترداد حقوق الأمة المهدورة وفي قلبها تحرير فلسطين.

كراهية الأعداء للرموز هي شهادة جدارتهم بمحبة شعبهم، صاغها الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودي ببساطة وبلاغة:

«أعداؤه كرهوه وذي نعمة من كرهه أعداؤه صادق
في قلبه كان حاضن أمة ضمير وهمة ومبادئ
ساكنين في صوت عبد الناصر»... وفي صوت نصرالله.

ولأن السيد رمز للمقاومة بمعناها الصحيح الشامل المتكامل كنهج للتحرر والكرامة في أبعادها الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والحضارية، والآن وقد صمتت المدافع ولو إلى حين بالهدنة على جبهتي غزة والجنوب فسوف تستعر الحرب على باقي جبهات المقاومة الشاملة سياسياً وثقافياً وإعلامياً، وهنا علينا أن ننتبه أن استهداف الرمز لتشويهه هو معركة رئيسية في هذه المواجهة المستمرة بين الأمة وأعدائها، ليست حرباً على رجل بل على فكره يجسّدها الرمز، وليست حرباً لتصفية حسابات مع الماضي وإنما هي حرب لصياغة معالم المستقبل.

وكما انتصرت الأمة مع القائد وبه وانتصرت له،
ستنتصر مع الرمز وبه وستنتصر له.
سلام عليك أيها السيد قائداً ورمزاً،
سلام عليك أيها الصادق المؤتمن المحب المحبوب.
إلى اللقاء في رحاب الشهادة.
إلى اللقاء في انتصار الدم على السيف،
وانتصار الصدق على الزيف.
سلام عليك في لقاء الأحبة.

* الأمين العام للمؤتمر القومي العربي

نصر الله

أ. ج. س

الأخبار
al-akhbar
صادرة عن
شركة أخبار بيروت

رئيس التحرير
ابراهيم الأمين

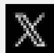
مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

المدير الفني
صلاح الموسى

المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر
كونكورد الطابق الثامن
تلفاكس: 01759500 01759597
ص.ب 113/5963


/AlakhbarNews


@AlakhbarNews


/AlakhbarNews

الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
التوزيع
شركة الأوائل
15ـ01/ 666314 ـ 01 828381 / 03
الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com